

الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز



قصص

أمبارو دابيللا

أشجار متحجرة

ترجمة: محمد إبراهيم مبروك

• الكاتبة:

أمبارو دابيللا. كاتبة مكسيكية.

• ولدت في قرية "بينوس" التابعة

لمدينة "ثاكا تيكاس" عام ١٩٢٨.

• واحدة من أهم كاتبات أمريكا

اللاتينية في القرن العشرين.

أسهمت كتاباتها في دفع موجة

التجديد بالقارة، وبرغم قلة إنتاجها

الذي لم يتجاوز بضع مجموعات

قصصية هي "حين تقطعت الأوصال"

عام ١٩٥٩، و"أشجار متحجرة" عام

١٩٧٧، و"موسيقى حية" ١٩٦٤، إلا أنها

تلقب في أمريكا اللاتينية

بـ "المايسترو" ويعتبرونها من أوائل

المؤسسين والكاتبات المهمات في

القارة، وقد حازت جائزة "بياروتيا" للأدب.

الجائزة:

جائزة "بياروتيا" للأدب.

وهي جائزة تمنح من الكتاب للكتاب،

تأسست في المكسيك عام ١٩٥٧.

بمبادرة من الناقد الأدبي "فرانسيسكو

زنديخاس".

وقد منحت في أولى دوراتها للكاتب

المكسيكي الشهير "خوان رولفو" عن

روايته "بيدرو بارامو"، في البداية كان يتم

منحها باسم جمعية أصدقاء "خابيير

بياروتيا"، ثم منحت باسم جمعية

"الفونسو" العالمية، وتمنح الآن باسم

جمعية "الفونسو" والمجلس القومي

للثقافة والفنون من خلال المعهد

القومي للفنون الجميلة، وأحياناً تمنح

الجائزة لأكثر من كاتب في الدورة

نفسها، وأحياناً تمنح عن مجموعة

أعمال كاتب بعينه إن تراءى ذلك للجنة

التحكيم..

قصص أسفار متجدة

رئيس مجلس الإدارة	أ. د. محمد صابر عرب
رئيس التحرير	د. سهير المصادفة
مدير التحرير	السماح عبد الله
سكرتير التحرير	وردة عبد الحليم
التصميم الجرافيكي	د. مدحت متولى
الاخراج الفنى	صبرى عبد الواحد
	على أبو الخير

دابيلا، أمبارو.

أشجار متحجرة: قصص / أمبارو دابيلا؛
ترجمة: محمد إبراهيم مبروك. - القاهرة: الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

١٦٠ ص؛ ٢٢ سم. - (جوائز)

تدمك ٤ ٦٨٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص.

أ - مبروك، محمد إبراهيم. (مترجم)

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٩٩٣ / ٢٠١٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 686 - 4

ديوى ٨٠٨، ٨٣

أشجار متحجرة

قصص

أمبارو دابيللا

ترجمة: محمد إبراهيم مبروك



والهجرة إلى FANAL
مكتبة دار الكتب
٢٠١٠

• الكتاب: أشجار متحجرة

Arboles Petrificados

• تأليف: أمبارو دافيلا

Amparo Dávila

• ترجمة: محمد إبراهيم مبروك

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلي للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب في مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للناشر الأصلي:

© (1959) FonDo De cultura EcoNómica. carretera Picacho Ajusco 227, C.P. 14738, México D.F.

• الطبعة الأولى ٢٠١١.

• طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فناء مَرِيعَ

الدنيا ليلت . ومن الفناء المكشوف أمكنى أن أرى
شفق شديد الاحمرار مثل الاشتعال أو مثل بحر
أرجوانى . كان فناءً من تلك الأفنية الخاصة، المربعة،
بممرات وحجرات من كل جانب . أوراثيرو كان إلى
جوارى يتطلع إلى الغروب . وفى أركان الممرات، ظهر
بعض الأشخاص الملتئمين يتسحبون فى هدوء كما لو
كانوا كورساً ثانوياً، بموكب لمحفة وصوتهم خارج من
سرداب . لم أعرف إذا كان هذا من أجل هذا الغروب،
المضرج بالدماء أو لأن تلك الساعة من المساء التى
يحس المرء فيها بشكل خاص بالحزن، الذى لا أحد
منا نحن - الاثنين - تكلم عنه . فجأة انكشف منظر
جانبى لرجل مقصوص على خلفية عميقة بالغة
الاحمرار للسما، مثل خنجر أسود، مسمم فى
كورنيش الفناء . وأوهى دفعة كانت كافية لأن تجعله
يتدهور فى الهوة .

- راح للموت برجليه .

- راح للموت برجليه . - قلت ذلك مرة أخرى، لأن الرجل ظهر دون أن يخطو خطوة واحدة للوراء، كما لو أنه كان عازماً بقوة على أن يرمى بنفسه إلى الهوة .

وبحثت بناظري عن أوراثيو لكنه لم يكن بجانبى بالفعل . طمأنت نفسي؛ لأننى عارفة أنه أدرك رسالتى وأنه ذهب لإنقاذه . وفى قلق انتظرت وأنا أراه يصل وراء الرجل؛ لكن الدقائق مرت وأوراثيو لم يظهر. بينما كان الغروب يتمزق متحولاً إلى خرق مضرجة بالدماء .

عندئذ عرفت أن أوراثيو كان فى مواجهة المنتحر الآخر فى أقصى الفناء . فى موقف مماثل، كما لو أنهما خنجران متقابلان مغروسان وجهاً لوجه، مثل لمبتين نيون على لوحة شطرنج .

- راح للموت برجليه . قلت ذلك بالفعل دون أمل، وأنا أصدق شاخصة إلى المجهول .

وفى هذه اللحظة نفسها ألقى أوراثيو بنفسه إلى الهوة . والمثلثون الذين كانوا يبدون وهم لا يتحركون طوال الوقت أطلقوا نعيقاً كارثياً ورموا أنفسهم بشراهة فوق الجسد الواقع وهم يغطونه بأجنحتهم الضاربة إلى اللون البنى والمكسوة بالأغشية .

وأنا بدأت أتراجع للوراء . . . ودخلت إلى الحجرة حيث لعب الطفولة محفوظة لكن تلك الحجرة كانت مليئة دائماً بالدمى، كرات، دبة، قباقيب ترحلق، وهى الآن غرفة ملابس بشماعات حافلة بالثياب . فى مرة

دخلت إلى هناك وبالفعل لم يكن ممكناً رؤية شيء سوى قطع ملابس فى كل ناحية، كما لو أنها محل ملابس مرهونة، أو تلك المحال التى تؤجر الملابس لكل المناسبات . كانت مئات، آلاف من البدل والفساتين الجميلة، والغالية الثمن من طرز التفصيل والألوان بالغة التنوع، وأى قطعة ملابس يستطيع الإنسان لو أراد أن يجدها هناك . وبحماس شديد فرغت نفسى كي أجرب كل الحاجات، لكن لا شيء كان جميلاً علىّ. أو كان كبيراً، أو صغيراً، طويلاً، محزقاً . لا شيء على قد مقاسى . لا شيء . بدأت أحس بالإحباط وأعانى فى الحقيقة؛ لأننى لم أجد شيئاً يناسب طولى، لكن لم أكف عن تصميمى وقست على نفسى فساتين، وفساتين أكثر، وأكثر من بالطو، وحقائب سيدات، وقبعات، وبلوزات، وجونلات، وأشياء مهمة .

كانت الدنيا قد ليلت تماماً عندما سمعت من ينادينى باسمى مرة ومرة أخرى . تعرفت على صوت أوليفيا، الذى خرج من بين الملابس:

- أوليفيا، أين أنتِ؟

لم ترد على سؤالى، لكنى عدت أسمع النداء نفسه:

- أوليفيا، أوليفيا، أين أنتِ؟

- أنا هنا، فى وسط الحجرة . أجابت حينئذ بصوت بالغ الخفوت كما لو أن الفستان يخنقها .

وأنا عملت على تحريك الملابس، وملابس أكثر
جاهدة فى أن أفصلها عن بعضها، ومفسحة لى طريقاً
باتجاهها. ونجحت فى المرور بين شماعة فوجدت
أخرى وبعد ذلك أخرى ثم أخرى وأخرى، كما لو أن
الملابس والشماعات تتضاعف أعدادها ولن تسمح لى
أبدأ بالوصول إلى أوليفيا . وفى النهاية نجحت فى
الخروج من ذلك العالم من الملابس، ورأيتها وكل ما
ترتيديه أسود وتحجب وجهها بنسيج شفاف أسود
أيضاً . كانت واقفة على قدميها فى وسط دائرة،
محيط بالغ الصغر والذى يبدو أنها تنتمى إليه،
وسألتها:

- ماذا تفعلين هنا؟

وهى تقدمت خطوة أو لم تتقدم، لكننى أحسست
أنها تمشت نحوى، بينما يداها تبعدان النسيج
الشفاف الذى يحجبها، وقالت:

- أنا ميتة . ألا تعملين حساباً لكونى ميتة، كم
مضى من الوقت وأنا ميتة؟

وما أن خلعت الطرحة التى تغطيها حتى وجدت
نفسى أمام وجه مجوف، حفرة حيثما نظرت إلى
فراغ .

- أنا ميتة، ميتة .

وظلت تتقدم ببطء باتجاهى . أنا التى رميت
نفسى فى تلك الورطة من الملابس، والتى تتطاير الآن

والتي هي خفافيش سوداء، وطيور بوجه، ونسور،
وعناكب، وأنا بدأت في التراجع، في التراجع...
اندفعت داخل حجرة؛ حيث كان بها رجلان مسنان،
جالسان أمام منضدة بثلاث أرجل يقرءان في كتاب
كبير تحت نور ضارب إلى البياض من لمبة تتدلى
بحبل . فوجئت بظهورهم المرعب، وهما رفعوا نظرهما
عن المجلد لكي يراقباني وقد وضعا يديهما عليه كله.
نجحت في رؤية ما يقرءانه وهو كتاب تفسير الأحلام،
ومن خلال ما وجدته مقنعاً جداً وفرصة لأن
أستشيرهم في شيء يشغلني جداً منذ زمن طويل.
رحباً بأن يشرحاً لي ودعياني بلطف أن آخذ مكانى
على مقعد أمام المنضدة في الزاوية الثالثة والتي لم
يكن يشغلها أحد.

- هو رجل، وهو نفسه دائماً، يطاردنى بخنجر
كبير فى الليالى كلها عندما أنام. إنها عاصفة لا يمكن
التعبير عنها الخوف، الخوف من أن أعيش مع الذى
فى يوم ما يلحق بى وأنا لم أستيقظ بعد . هذا ما قلته
لهما.

- أنا أعرف جيداً ما هو ذلك . قال أصفر
العجوزين . أنا أعانى من الاضطهاد يومياً، وبشكل
مستمر، من سحابة من الفراشات السوداء التى تظهر
دائماً فى أية لحظة، فى أى جزء حيث تجدنى. إنها
سحابة صفيقة لدرجة أنها تتلاقح فوق رأسى، وأنها
إذا تحلقت، تتزحزح بنفس سرعة جريى لا تترك لى

مكاناً أحتمى به وأتحرر منها. إنها تطاردنى دون كلل
كما لو أنها ظل مخبر يعمل لحساب جهة عليا؛ أحياناً
أحس بها بالفعل شديدة القرب منى لدرجة أن على أن
أرفع اليدين فوق رأسى وأتحايل، إذ ألصق رأسى
تقريباً بالأرض كى أتفادى احتكاك أجنحتها المفريلة
من التراب المائل للون البنى والقاتم.

. تخيلوا، الرموز، مطاردة الشر. صرخ العجوز
الأكبر، مقاطعاً الرجل الآخر. لا مفر ممكن فى
الهروب من أنفسنا نحن. فالتشوش الذى بداخلنا
يتجه دائماً للبروز خارجنا. والحيلة هى طريق يتجه
لأية ناحية... لكن لا يجب أن تعانى ولا أن تتعذب،
نشرع فى اللعبة؛ الجو ملائم، السحر وحده هو ما
يبقى، التفكير السحري، السحر الذى لا يمكن
الإمساك به للكلمة.

- نعم، فلنشعل النار، لأن علينا أن نسجد للنار،
السحر الأحمر. مصهالة ومستعرة. قال ذلك الرجل
الآخر وهو يخرج قداحته وباعث الشرر كان قضيباً
معدنياً كبيراً، جميلاً ولامعاً. والرجلان شرعا فى
إشعال نار بكل ما كان موجوداً فى الحجرة، فحطموا
الكراسى، والدكك، وكووماً وسائد، كتب وأوراق
انتزعها من خزانة كبيرة خضراء للملفات.

. لتأت الآن الفراشات السوداء! - صرخ العجوز
الأصفر ضارباً صدره بقبضته مثل إنسان الكهوف -
نعم! لتأت الفراشات السوداء لتحترق وخزاتها

المجنحة فى نار الأسلاف، النار التى لا تفنى أبداً.
النار التى لا نهاية لها بالأمس، واليوم، وغداً.

- هذه كانت ذكريات طفولتى - صرخ ضاحكاً
بقهقهات عالية العجوز الأكبر - فترقد بسلام فيك، آه
أيتها النار! آه أيها السحر الأحمر! آه أيها القالب
المستدير ويا قصبة الساق الكبرى، التى تحدث فينا
أمراً جلالاً. ومزقت أوراقاً مصفرة.

- تحبنى، لا تحبنى، كثيراً، قليلاً لا شىء، تحبنى،
لا تحبنى، كثيراً، قليلاً.

- ساعدنى - صرخ العجوز الأكبر بينما يخرج
ربطة من الإيصالات، كثير منها مختوم - فلنحرق
إيصالات الإيجار، وإيصالات النور. إيصالات التليفون
وإيصالات الغاز، إيصالات العاهرات، التى أرشفناها
لكى ننقل بالتفصيل قائمة جرد بالداخلات
والخارجات، حتى نكون مراعين للنظام ودفاترنا
مضبوطة، الحسابات الجنسية، والحسابات المالية،
مثل الكائنات المرتبة، الذين يعتنون بتسجيل ما يجرى
فى حياتهم فى كل يوم والذين يكتبون يومياتهم
وذكرياتهم.

- وأنا بدأت أتعرى، ورحت ألقى بقطع ملابسى
التي خلعتها، كشكل وحيد للتعاون، الذى أستطيع أن
أقدمه لتغذية النار. وهما منشغلان بشدة بالقيام
بعملهما، يرفعان، فقط، من حين لآخر النظارات، التى
غطاها الدخان بالهباب، وابتسمان مسرورين بما
يكفى بذلك التعاون التلقائى فيما بيننا.

- لا، ذلك لا. ذلك لا. صرخ العجوز الأصفر
عندما رأى الرجل الآخر ماضياً ليرمى فى النار بثلاثة
دفاتر ممثلة بالصور الفوتوغرافية. ذلك لا، أبداً، إذ
لا بد من إنقاذ الصور الإباحية، ما الذى سنفعله بعد
ذلك بدونها؟ قال مخفضاً صوته حتى انتهى إلى كونه
فقط همس عذب. ما الذى سنفعله بدونها فى تلك
الليالى الطويلة من الأرق؟ وبدأت عيونهما تطوف
دامعة بشدة. فكرت بأن خيالنا بالفعل ليس عذراء
فتية، وليس سوى امرأة طاعنة فى السن، وأنها متعبة،
وتلمس المساعدة لكى تعبر الطريق...

- حسناً، لننقذ الصور الإباحية. قال العجوز
الأكبر بشكل كامل مقتنعاً بالدموع الثقيلة ومفكراً
بشكل أكثر تعقلاً عن صديقه.

- لننقذها الصور الإباحية، ماتاريلى، ريلى، ريلى،
ماتاريلى، ريلى رون. لنغنى الآن نحن - الثلاثة -
ممسكين بأيدينا حول النار. ماتاريلى، ريلى، رون، ما
الذى تريده حضرتك، ماتاريلى، ريلى، روم؟

بدأت أعطس دون توقف؛ لأن الرماد من الأجنحة
المحترقة للفرشات السوداء دخل حتى حنجرتى،
والدخان بدأ يخنقنى. ودون أن أودعهم، فتحت الباب
وخرجت.

وبدأت أراجع للوراء.

وجدت نفسى فى قاعة كبيرة مليئة بالكتب. شئ
هكذا أشبه بمكتبة كبيرة أو مكتبة فى حالة تجديد. إذ

كانت المجلدات مكومة على الأرضية، وفوق الدكك، والرفوف فارغة. فى كل ناحية هناك كتب. شاب نحيل وشاحب ينفضها بمنفضة برتقالية اللون، لكن لم يفعل شيئاً ليريحها فى الرفوف. وما أن رآنى حتى سار ناحيتى وسألنى إذا كنت أريد كتاباً ما، أجبته:

- من زمن طويل وأنا أبحث عن كتاب (*) Rabinal

Achi.

سأل مندهشاً:

- El Rabinal Achi ؟

- نعم El Rabinal Achi.

- إنه غير مجدٍ بالمرة أن تريدى قراءة El Rabinal

Achi دون أى استعداد. وبأى وجه كان.

قال ذلك بجدية، وهو يحك ذقنه بإصبعه الطويل

المصفر. لا، لا يمكن.

- أريد أن تقول لى لماذا؟

- لكن... حضرتك لا تعرفين أنك لكى تقرئى

هذا الكتاب تحتاجين أن تكونى قد وصلت إلى درجة

معينة، ويقال إلى درجة عالية من الصفاء الذهنى.

. ليس هناك ما لا أعرفه، ولا ما أهتم به. أجبته

مشددة جيداً على الكلمات.

رفع كتفيه فى خجل وبقي مركزاً نظره على.

(*) كتاب من التراث القديم حافل بالأساطير وأبطال الحروب التى

خاضتها قبائل المايا فى جواتيمالا، وشكلت تاريخها وثقافتها قبل

الاستعمار الإيبانى لأمريكا الجنوبية.

- ما درجة الصفاء الذهني التي التمسستها حتى
تستطيعي قراءته؟ - سأل، بالفعل بصوت أكثر لطفًا .

- عليك أن تحققي المستوى الأساسي بتمرين
يومي شاق معاقبة للروح والجسد . قال ذلك بجفاء،
وواصل تنفيذ الكتب .

- وذلك الكتاب، كيف أحصل عليه بواسطة تلك
التمرينات؟

- حسنًا، إنه صعب بما فيه الكفاية شرح ذلك .
وسأخذ وقتًا طويلاً . وسيتم ذلك دون مراعاة أكثر
للسيد الذي وصل .

وبقيت أنا دون أن أعرف ما يفكر فيه، بالغ
الغرابية، ومنزعجة من تصرف وموقف الشاب
الشاحب . وتقريبًا في اللحظة نفسها عاد وقال لي:

- أعتقد أنني أستطيع أن أذكيك لبدء التمرين، أو
سيكون ذلك كخطوة بسيطة للبداية؛ El Hata Yoga

- El Hata yoga ؟ لا شيء يبدو لي من العالم الآخر .
يجب أن تعرف حضرتك أنني خلال سنوات وأنا أقف
على رأسي كل صباح عند قيامي من النوم .

- وليس ذلك بشيء . قال بسخرية . عندما
تستطيعين حضرتك عمل هذا سنتكلم .

وأضاف إلى الزمن الذي ارتفعته عن الأرض نحو
متر ووضع كتابًا على سطح / رف أكثر علوًا من بائع
الكتب . أو هذا . أضاف بينما أخذ الهواء بأنفه ورأيته

كيف يستند إلى الأرض فقط على الإصبع السبابة من اليد اليسرى وجسمه كله فى خط واحد، رأسى مع ساقيه متجهًا إلى فوق، ورأسه إلى تحت دون أن يلمس الأرض.

- لا شيء سهل، أليس كذلك؟ - قال ذلك وهو يعود إلى وضعه الطبيعى.

- وكم يكلفنى El Rabinal Achi . خطر لى أن أسأل، فقد كنت بالفعل مغتاضة من الإشارة التى لا تليق من ذلك الشاب شديد الشحوب.

- كم يكلف ذلك الكتاب؟ حضرتك لا يمكنك أن تشتريه، وهذا تقديرى يا سيدتى.

بحشت فى كيس نقودى لأعرف كم أحمل وكان معى ما يقرب من مائتى بيسو.

- معى نقود كافية لشراء ذلك الكتاب والكتب الأخرى التى تستهوينى -

أجبتة وأنا أضغط على الكلمات.

- لا أتعامل بالنقود يا سيدتى. حضرتك لم تفهمى...

- لكن عندئذ، كيف يمكننى...؟

- قيمته ليست مادية، هذا ما قلته لحضرتك، وعليك حتى تستحقه، أو تفوزى به أن تسترديه لو أردتِ حضرتك.

كيف كنت أعمل حسابًا لذلك الذى لم أفهم منه شيئًا، فقلت له بلهجة ودودة أكثر:

- تعال معي، وأريني أين أجد El Rabinal Achi.

تبعته ومررنا إلى قاعة أخرى حيث كان بها حوض
سباحة في الوسط.

- انظري إلى القاع.

- في قاع حوض السباحة الذي كان مضاءً كما لو
كان واجهة عرض كانت توجد كتب كثيرة، الحروف
الفوسفورية للعناوين تتراقص في الماء r...a...b- i...
n... l... a... ch... I ألا تبتل؟

- لا شيء يحدث لها، الماء عنصرها وهناك زمن
كاف حتى يستحقها شخص ما أو يجرؤ على
استردادها.

- ولماذا لا أخرج واحداً؟

- لماذا لا تمضي حضرتك إليه؟ قال ناظراً إلى
بطريقة شديدة السخرية بدرجة لا يمكنني الصبر
عليها.

- لماذا لا؟ أجبته وفي الوقت نفسه كنت أغطس
في حمام السباحة.

وأنا ألقى بنفسي في الماء فكرت أن عمقه لا بد
سيكون حوالى مترين وأنتى بالغطسة الواحدة سأصل
إلى القاع، لكن حمام السباحة اتضح أنه أكثر عمقاً
والكتب كانت تحت أكثر من الحسبة التي حسبتها.
واصلت غطسي وعندما ظننت أن يديّ تلمسان الكتب
أدركت أنها لا تزال أكثر بعداً في القاع، ولا تزال أبعد.

وهكذا واصلت الغطس أكثر فأكثر، كل مرة أكثر،
فى المياه المضاءة والفوسفورية، حتى أحسست بأننى
لم يعد لدىَّ هواء، والذى بقى فقط هو ما أحتاحه
للخروج واستعادة التنفس. بدأت - حينئذ - فى
السباحة متجهة إلى فوق بكل ما أملكه من قدرة على
الإسراع. لم أعد راغبة بالفعل/ الآن لا فى الكتب، ولا
فى أى شىء آخر سوى التنفس. التنفس بعمق، ملء
الرئتين، التنفس مرة واحدة أكثر، مرة واحدة أكثر،
وصعدت، وصعدت حتى الآن بلا هواء، يائسة من أن
أتنفس قليلاً من الهواء، من الهواء، من الهواء... حتى
اصطدمت يداى بشىء صلب ومعدنى، شىء مثل
غطاء لناووس(*) ضخمة.

(*) الناووس: حجر منقور توضع فيه جثة الميت/ مقبرة المسيحيين
(لاروس للغة العربية).

الدائرة

عند الخروج من "سان بورنس" (*) دى نيثا"، بعد أن كنت قد تناولت إفطارى مع صديقة لى... وكان مكونًا كما اعتدت من عصير برتقال، قهوة، شرائح خبز محمص بالزبد. شمس فاترة غمرت الشوارع. وفى ساعتى كانت الساعة تقترب من التاسعة، وكانت لا تزال هناك نصف ساعة قبل أن أذهب إلى موعدى مع السيد فرنانديث. قررت أن أقضى قليلًا من الوقت أتفرج فيه على فاترينات العرض. وتوقفت أمام إحداها فى شارع هامبورج والتي جذبت اهتمامى بشكل خاص، أكياس للنقود جميلة من جلد التمساح من نوع ممتاز وموديلات أصلية حديثة، وكذلك شنط، وأحزمة، محافظ ومصنوعات جلدية كثيرة. وفى مرآة صادفتنى عند دخولى فى مدخل المحل رأيت نفسى منعكسة فيها، مما جعلنى أقترب منها لأسوى شعرى

(*) محلات سان بورنس فى المكسيك وهى تتكون من مطعم، وكافتيريا، وبار.

قليلاً . وعندما كنت أضع اللمسات الأخيرة للتسريحة ،
أتى شاب ووقف بجانبى ، ما أن أحسست بنظرته حتى
استدرت وأخذت أتأمله وجهاً لوجه . كان رجلاً وشاباً ،
أشقر ، سرت فى جسدى قشعريرة قوية من أخمص
قدمى إلى قمة رأسى ، لم أستطع أن أكون شخصية
أخرى ، فلا أحد أكثر من أن يكون هو... هل أنت مار..
كوس؟ "نعم" سمعته ، لكن لم ينبس ببنت شفة . فريسة
لضيق لا يصدق ورعب لا يوصف ، من ذلك الرعب
الذى يدخل الحياة من أبواب الروح ، بدأت أمشى
باتجاه مكتب السيد فرنانديث . كنت أريد أم أجري ،
أقدم على خطوة جنونية لا يمكن كبحتها لأبتعد عن
نظره ، لكن رجفة قوية استولت على جسدى كله ،
وساقاى بالكاد تسنداننى . ودق قلبى بضربات صماء ،
وبنظرة جانبية ؛ لأننى لم أجروُ على أن أنظر له
مباشرة ، رأيت يمشى بجوارى . وتقريباً يلصق جسمه
بجسمى . وفجأة عند عبور الشارع ، انشقت أرض
الرصيف ووقعنا نحن - الاثنين - فى هوة هائلة ، لكننا
لم نتدهور فجأة إلى الأعماق إلا أننا هبطنا كما لو فى
قلب دوامة أو من قوة طرد مركزية التى أعادتنا
بسرعة إلى جوف الهوة . وهناك ، معاً ، مريوطين بتلك
القوة الكاسحة ، التى لا تقاوم نجحت فى رؤية ماركوس
عبر العوز الواضح والذى تسرب الآن من على السطح .
أحياناً ، أرى جسده كاملاً ، عارياً ، رقيقاً وجميلاً كما
كان ، وأحياناً أخرى ، الرأس وحدها ، أو الجسد مشوه ،
بعدها ، أعضاء وحدها مبتورة ، ذراع ، ساق ، يد واحدة ،

أصابع متشنجة. العينين، الفم مشوه بابتسامة ساخرة
لاذعة... لا، من أجل الرب، صرخت يائسة، وكما
يقال، صرخت بداخلي... لأن الصوت لم يخرج من
الحنجرة وفقط التفكير هو ما جمعنا. "لا. لا أريد أن
أموت الآن، اتركنى، لدى أمور لا حصر لها لأقوم بها،
عائلتى، أصدقائى، كل ما أحبه، لدى الكثير، الكثير
لكى أنجزه فى الحياة. كل ما كان على أن أنفذه من
أوامر رئيس الرهبانية العسكرية، ولا بد أن أنجزه قبل
أن أمضى. لا... لا أحب، ولا أريد أن أموت الآن،
لست مهياة الآن، دعنى أخرج، أعود إلى السطح، إلى
النور، إلى الشمس التى أحبها، وإلى تلك الأشياء
الصغيرة، التى توهب لنا بلا مقابل، أنت ميت منذ
وقت مضى وبالفعل أنت لا تستطيع أن تفعل ولا
تستحق شيئاً، وبالفعل ليس لديك ما تفعله فى
الأرض، يجب عليك أن تفهم ذلك، ابتعد، ابتعد عنى،
وانظر إلى المكان الذى صار من نصيبك، فى المكان
الذى لابد أن تكون فيه. حيث تستريح مع الذين
سبقوك، أنا أريد أن أحيأ. أحيأ، يوجد دم فى عروقى،
وتوجد رغبة هائلة، رغبات هائلة لم تشبع وتتعرض
للضرر، تواصل تحققها، دعنى أواصل ما أحيأ، من
الرحمة، أنا خارجة منذ وقت قصير من الجحيم، أنا
الآن ما زلت فى المطهر، أنت تعرفه جيداً، أنا لم أعرف
سوى العذاب، والآلام، الضيق والوحدة، قبل أن أموت
أريد أن أعرف أشياء كثيرة من التى تأتىنى فى الحلم
دائماً. بلاد، بحور، أطلال، أماكن جميلة، كل ما يغذى

الروح، وأعرف أيضاً قبل أن أموت رجلاً حقيقياً،
بكامله، سليماً، رجل كامل من كل الوجوه، رجل بمعنى
الكلمة، وليس فقط قطعاً، ونفايات كائنات بشرية، من
الأدنياء، أو كاريكاتيرات مؤلمة للرجل بتصورات غير
أمنية أو مثيرة للرعب والتي تمزق الروح والأحشاء.
أريد أن أعرف رجلاً حقيقياً، أحس حبه واستمتع به،
أتأكد من أن الرقة الحقيقية موجودة وببساطة،
والطمأنينة، وسلام النفس، والهناء البرجوازية
ومحدودي الفهم الذين يشكلون من أغلبيتهم الأناس
الذين يذهبون كل يوم سبت إلى السينما، وكل يوم أحد
يخرجون لتناول طعامهم في الخلاء، أريد أن أعيش،
أريد أن أرى مرة أخرى، البحر، والسما، أعين
أطفالي، لا أريد، لا أريد أن أموت الآن، اتركني لوجه
الله، اتركني أعيش... "وفى قلب هذه الظلمة
الشديدة، لأن النور الآن مجرد ذكرى، أحسست بتلك
الأعضاء باردة، متحللة مثل الجيلاتين، الذي يمتص
من جسدي، كما لو كانت كئوس حجارة أو علقات
ماصصة للدم مجنونة لدرجة أنها تحاول أن تمتص
الحياة. تبتلع وجودي، تجرفني إلى تحت أكثر، وكل
مرة إلى تحت أكثر، دون إشفاق على يأسى، ولا على
صرخاتي التي تتحول إلى خوار وحشرات صماء
داخل حنجرتي. عندئذ، نعم، عندئذ، وصل من بعيد
جداً جرس طويل، الذي تتزايد حدته في كل مرة.
فتحت عيني وأخذت نفساً شديداً بعمق. كنت مبتلة
بعرق بارد، وقلبي يدق بطريقة غير معتادة، والتنفس

كان يرجئنى بشدة كما لو كنت أجرى عبر الليل الطويل. "السابعة صباحاً؛ شكراً للرب إنها السابعة صباحاً" سمعت نفسى أقولها بطريقة تقريباً آلية، فى الوقت الذى جريت فيه فرحة عظيمة، فرحة أن أكون حية ما أزال ولست ميتة، أو ماضية إلى الموت كما كان فى الحلم المرعب، الذى انتهى حالاً، إنه شئ رائع أن أكون على قيد الحياة فى السابعة صباحاً يوم الإثنين من أغسطس وأكون قد أفقت من هذا الحلم الذى كاد يفقدنى رشدى.

- صباح الخير، يا سيدتى، هذا هو فتجان شايكِ قالت ذلك خوانا وقررت منى الفنجان الذى أخذه دائماً أول ما أستيقظ :- لكن ما الذى جرى لك؟ إنكِ شديدة الشحوب، أتشعرين بأنكِ فى حالة غير طيبة؟

- لا، أنا فى حالة طيبة، فقط إننى كنت فى كابوس. كابوس مرعب، لكن الشكر للرب أنه انتهى. هل طلبنى أحد فى التلفون؟

- الأنسة تيريسا طلبتك بالليل قبل أن تأتى حضرتك، لكى تذكركِ بأنكما ستذهبان للإفطار معاً.

تناولت الشاى. ووضعت نفسى تحت الدش، ومع النشاط الذى أثاره الماء توقف توتر العضلات. وبعد أن دلكت جسمى بماء الكولونيا المفضل لى، أحسست بأننى أفضل كثيراً كما لو أتنى قد أخذت فترة راحة طيبة. ارتديت ملابسى ورتبت أمورى بعناية إذ على أن أرى عدة أشخاص بعد أن أتناول الإفطار مع صديقتى تيريسا.

السماء كانت صافية، مع زرقة لا تصدق عند خروجى من البيت، قرب الثامنة وبخية أملى الكبيرة، عندما أخرجت السيارة وجدت أن إحدى عجالاتها هابطة تمامًا.. دائماً تحدث لها هذه الأمور عندما تكون الواحدة مستعجلة، وبعد ذلك بحثت عن تاكسى. لم أجد تاكسيًا، لأننى عارفة أنه فى هذه الساعة تعتبر معجزة أن تجد تاكسيًا. تيريسا لابد أن تكون قد جاءت، ما من شك لأننا نحن - الاثنتين - نحب الدقة. مثلما أننى خفت ألا ألحق بتاكسى وأن على أن أركب مواصليتين حتى أصل إلى سان بورنس دى نيثا؛ حيث كانت تنتظرنى صديقتى، وعندما وصلت فى النهاية، كانت هى بالفعل قد بدأت تتناول الإفطار. كانت تدخل مكان عملها فى التاسعة، وياقى فقط نصف ساعة. هدأت نفسى، ووجدتها تأكل بهدوء، وبدأت أحكى لها عن الظروف المعاكسة لى.

- لكن، ماذا عن تناول إفطارك الآن؟. سألت قاطعة حكايتى وهى تبتسم؛ لأنها سرعان ما عرفت أننى لم أغير أبدًا إفطارى.

- إنه دائماً الإفطار نفسه.

- لا شك أنك تأكلين مثل عصفور. أنا لم أفسر لنفسى كيف يمكنك أن تعيشى وتعملى بذلك الغذاء. قالت ذلك بينما كانت تلتهم طبقها من البيض مع لحم الخنزير والفاصوليا بالصلصة بالزيت المقدوح والفلفل الأحمر والثوم والبصل، وأنا أشرب بتأن قهوتى، بعدما

كنت قد تناولت عصير البرتقال وقطعة توست
مدهونة بالزبد.

- لا تصدقيني لو حكيت لك أن البيرا بالفعل
تزوجت.

- هل هذا بجد، أم أنك تهزرين؟

- لا. لا، لقد قلت ذلك بجد. لقد انتبهت بالفعل
أنه وحده حتى اليوم الأخير.
- وكيف عمله؟

- الدنيا كلها تقول إنها معجزة تحققت له بهذا
الوجه وهذا الجسم. وتناولت فنجاناً ثانياً من القهوة.
- وعلاوة على ذلك، فهي مدبرة مقالب مرعبة،
وأنا دائماً أخرج منها.

- ومثلك الدنيا كلها. لكن التيثموت من الفيظ هي
جويرا، أتذكرين المواقف التي أخذتها مع الدنيا كلها؟
- وهكذا، بين تعليقات عن الفيلم الأخير، ورخص
ثمن قصر الحديد، وعن رسالة لويس ماريو، عن
أحذية بيرتيجات والتي هي مصنوعة بإتقان ومريحة.
وبقاؤنا نتفرج على يوم السبت في الساعة السابعة
مساءً لكي نذهب إلى معرض الرسامة فرانسيس.
وتيريسا ذهبت جرياً في التاسعة وخمس دقائق وأنا
مازلت أدخن سيجارة أخرى بكل هدوء.

عند الخروج من سان بوژنس، شمس فاترة تغرق
الشوارع، ومن ساعتى كانت الساعة تقترب من

التاسعة، وكانت لا تزال هناك نصف ساعة قبل أن أذهب إلى موعدى مع السيد فرنانديث. قررت أن أقضى قليلا من الوقت، أتفرج فيه على فاترينات العرض، وتوقفت أمام إحداها فى شارع هامبورج، والتي جذبت اهتمامى بشكل خاص، أكياس للنقود جميلة من جلد التمساح من نوع ممتاز، وموديلات أصلية حديثة، وكذلك شنط، وأحزمة، ومحافظ ومصنوعات جلدية كثيرة. وفى مرآة صادفتنى عند دخولى فى مدخل المحل رأيت نفسى منعكسة فيها، مما جعلنى أقترب منها لأسوى شعرى قليلا ، وعندما كنت أضع اللمسات الأخيرة للتسريحة، أتى شاب ووقف بجانبى، وما أن أحسست بنظرته حين استدرت وأخذت أتأمله وجهًا لوجه. كان رجلا وشابًا، أشقر. سرت فى جسدى قشعريرة قوية من أخمص قدمى إلى قمة رأسى، ولم أستطع أن أكون شخصية أخرى، فلا أحد أكثر من أن يكون هو. ألسن، حضرتك، ماركوس. حقيقى؟

ليلة الجيتارات المحطمة

فى أمسية يوم السبت، من تلك التى يخرج فيها الإنسان لشراء أى شىء، أو ببساطة ليتجول ساعات وساعات فى وسط المدينة، ويتوقف عند كل فاترينة، ويلاحظ بعناية المعروضات كلها، وكل واحد من تلك الأشياء، وكما يدخل فيها يخرج منها ليجد آلة إيقاع "جانج"، أو أى شىء آخر بحث عنها لزمان طويل. أولادى وأنا تمشيننا فى الممر، الذى يقع خلف الكاتدرائية المتقاطع مع باعة التجزئة للأعشاب الطبية، وعندما اجتزنناه دخلنا محلاً أمامه لبيع الأدوات الموسيقية حيث توجد آلات: الكمان، التشيللو، البونجو، الشخشخة، وبشكل خاص: الجيتارات بكل أحجامها، ومستوياتها وأسعارها، توقف ابنى وابنتى مفتونين بما يريانه.

- انظر كم هو جميل هذا الجيتار الصغير.
صاحت خاينا . اشترىها لى يا شابادا.
- لا أقدر على هذا الآن، يا حياتى.

- نعم، يا شابادا، نشترى واحداً - طلب لورين هذا أيضاً.

- يا أولادى، أنا لم أحضر معى نقوداً.

- إذا، بماذا تذهبين وتسددين ثمن كل تلك الأعشاب التى تشترينها؟ (مع أن خاينا تعرف جيداً أن من أكبر هواياتنا شراء كل الأعشاب، والبذور، الجذور، واللحاء الذى يحمل اسماً نادراً وأسطورياً عن فوائده الطبية. وبها أحضر ما يكفى من الحاجات، لكن بشكل خاص دواء شرب من المنقوع أو المغلى أو المطحون منها، وأكثر المرات، آخذها لإشباع فضولى فى التعرف على طعمها، وأتأكد فى الوقت نفسه، إذا ما كانت حقيقية أو مفترض أنها نوعيات شافية لما هى مخصصة له، ومن خلال التجربة الطويلة التى صارت لى فى تلك الفحوص، لابد أن أعترف أننى فى بعض المرات التى جريت فيها، وجدت مشروبات غريبة كريهة الطعم، أو المعرفة بها محدودة، ولقد عانيت من درجات خفيفة من التسمم حتى التسمم بشكل خطير، لكن لم أقل بسبب ذلك من أن يظل اهتمامى حياً والذى ظل دائماً لدى بالبحث فى النباتات الطبية ولا الاندهاش أمام ولا التأكد من فوائدها. أوضحت لخانيا:

- الأعشاب تكلف قليلاً جداً.

- لكنك تشتريين مئات منها يا شابادا.

وبينما كنا خانيا وأنا نتناقش، أخذ لورين واحداً

من الجيتارات الصغيرة التى كانت فوق رف العرض بجوار آلات البونجو (آلة إيقاع) والشخاشيخ، وبدأ يلمس الأوتار ليتحقق إذا ما كانت تصدر صوتًا مثلما تصدره الجيتارات الكبيرة، أو أنها كانت فقط للعب.

- اترك هذا الجيتار يا لورين. ووعدتكما بأننا سنأتى لنشتري واحدًا، فى السبت القادم.

- كم هى جميلة سترتك...!

نظرت باتجاه الأركان كلها وأنا أبحث من أين خرج ذلك الصوت الذى كان بالغ الرقة.

- هل هو من استعمال "كريمات"، خالية، أليس كذلك؟

وعندئذ اكتشفتها جالسة خلف إحدى فاترينات العرض فى العمق داخل المحل، وتقريبًا مخفية داخل هذا العالم من الآلات، ولم أستطع أقل من الإحساس الكامل بالافتتان بهذه المرأة التى تبدو كدمية حقيقية فى سن العشرين. كانت ببشرة وجه أسمر، تعطى انطباعًا بأنها شاحبة، على نحو يجعل المرء يتذكر "الجبل السحري"^(١) أو "غادة الكاميليا"^(٢). وباقترابى منها أكثر، لاحظت أن هذا الشحوب المبالغ فيه، لابد أنه، من ناحية ما، يرجع إلى الأتربة الكثيفة التى تتضح فى لون الجلد والمستخدم بشكل زائد عن الحد. وفى هذا البرواز الأبيض مما نتج عنهما بشكل

(١) رواية لـ «توماس مان».

(٢) رواية لـ «ألكسندر ديماس».

ملحوظ عينان كبيرتان سوداوان. وأذنان عميقتان بنفسجيتان، واللتان تعطيان جاذبية غامضة. الحاجب كان فقط خط بالقلم الأسود لجين هارلو والفم ملون بلون أحمر قان على شكل قلب. "مثل قلوب حمراء، فم صغير لامرأة" وشعرها الكستنائي الغامق بتسريحة جميلة جداً وملموم إلى الخلف بشريط معقود نصف عقدة أو أنه كان على وشك أن ينحل، والذي لم يكن يصدق في هذا كله هو فستانها: فستان من القطيفة الحمراء القانية، مستهلك جداً من الاستخدام والذي في بعض المواضع تقريباً ليس به وبر مع موجات من لون شفاف غير مدبوغ حول العنق وعلى الأكمام.

- هذا ما لا أعتقده - أجبتها - عندما نجحت في التغلب على اندهاشي، والذي نسيت فيه مظهرها وإحساس غريب الذي بدأ الإحساس به عند رؤيتها. كما لو كان الزمن يتراجع إلى الخلف وأنني كنت في إحدى المرات أتحدث نفس الحديث الذي لا أهمية له مع تلك المرأة، في فترة كانت هي فيها صورة أمينة.

- إذا ما الذي تضعينه؟

- "لوسيون" وكريمات التي أحضرها أنا بنفسى.

- وأيضاً تأخذينها يا شابادا - أجابت خانيا.

- عليك أن تعرفى حضرتك، لأننى من جوادا

لاخارا - بدأت المرأة فجأة، تحكى لى، بدون مقدمات - وهناك أنا أستخدم بعض الكريمات، أنواع من الصابون واللوسيون، وأشياء كثيرة أخرى والتي دلتنى على تحضيرها صديقة لعماتى وزوج تلك السيدة،

والذى كان ألمانيًا، كان قد عمل فى شبابه بوصفه كيميائيًا فى معمل لمستحضرات التجميل ببرلين. وعندما جاء إلى المكسيك، فتح ورشة للحدائد فى جوادالاخارا، وتزوج صديقة عماتى. ولو رأيت حضرتك كم عدد الكتب التى عنده والتركيبات شديدة الروعة التى بها، لكن ما حدث أننى أنسى الوصفات. ومعقدة، على الذاكرة لم أحترس أبدًا فى ملاحظتها، ومر زمن لم أعد بالفعل أستخدم تقريبًا شيئًا. وما أن رأيتها. أضافت بفتور مكتئبة. لا أستطيع أن أنظر بتركيز فى بشرتها الشديدة النظافة والنعومة. وبالنسبة لى فقد أخذت تتفتح مسام الأنف.. لو رأيت حضرتك كم هى جميلة بشرتها...! حسنًا، السنون مرت، والواحدة.

– ألم تستخدمى حضرتك إكليل الجبل؟

– إكليل الجبل؟ إننى أستخدمه، طبعًا هو من أحسنها.

– و"الخالدة الصفراء هل تعرفينها؟

– فقط سمعت الكلام عن فائدتها، لكن لم أنجح

أبدًا فى معرفة كيف تستخدم. هل تعرفين حضرتك؟

– نعم، فقط أن هناك طرقًا عديدة لتحضيرها،

كل شىء يعتمد وبشكل خاص على طبيعة الجلد. وكما

أتى بالتالى من هنا، سأعمل لك نسخة من بعض

التركيبات التى عندى، لكى تختارى حضرتك التى

تبدو أكثر إرضاءً لك.

فى هذه اللحظة، ظلت تفكر كما لو أنها تحاول أن تتذكر شيئاً وذهبت بعيداً جداً، وغابت طويلاً، حتى أننى هiyأت نفسى للانصراف، عندما قالت فجأة:

- شىء وحيد هو الرائع فى الحقيقة من أجل الرموش المختالة هو منقوع أوراق الورد لأنه، لابد أنك تعرفينه حضرتك، أحياناً يكون اللون صارخاً فى الليل وفى اليوم التالى تصبح العيون وقد أصيبت بمصيبة، إذ تتورم بشدة، لكن ببعض الكمادات من منقوع أوراق الورد، بالكاد يكون المنقوع فاتراً، فيزيله، فوراً، فوراً.

نظرت عندئذ، فى عتمة الليل، إلى هذه الدمية بنت العشرين تبكى فى صمت فوق مخدة صلبة وباردة، وبدون قصد ركزت نظرى فى الأذنين البنفسجيتين الشديدتى التحديد والعميقتين. لا أملك أقل من أن أفكر فيما لم يقل؟ أن تكون تلك الكائنة الغريبة حتى تبكى هكذا فى منتصف الليل.

- حضرتك لا تبكين باستمرار، ليست لك رموش مختالة - وتأملت نفسى بتأن - لكن لو فى يوم... انظرى، ضعى فى النور حوض ماء صغير هكذا باليد مثلت حجم الإناء - وبه ماء حتى نصفه، وسخنيه على النار، ببطء وببطء شديد، وما أن يتصاعد الغليان حتى تضاف إليها بتلات الورد، وبعدها تغطى وتترك حتى تهدأ لفترة كافية.

ولا واحدة منا نحن - الاثنتين - لا هى ولا أنا، نحن عملنا حسابنا أنه فى الوقت الذى نتحدث فيه

بحماس شديد، أولادى جربا جيتاراً آخر وأجادا جعل
البونجو يصدر صوتاً بضربات اليد وباليدين الأخرى
الشخشخة، وجربا آلات الكمان فأصدرت أصواتاً
غير منسجمة، أما مثل الرعد، أو التوسل، قطعنا
بضربة واحدة حوارنا، يمثل هذا العنف وبشكل مذهل
جداً، حتى أننى شعرت كما لو أن هذا الانقطاع
المفاجئ للحديث سيصبح الآن آتياً من ماض بعيد.

— اتركوها هناك يا أولاد، اتركوها، اتركوها،
اتركوا الآلات فى مكانها، لا تضربوا عليها أكثر من
ذلك، لأنكما لا تعزفان شيئاً! هل تسمعاننى؟ لقد
أفسدتموها كلها، وأفسدتما ترتيبها، وسختموها
وأفسدتموها، وتركتما آثار أصابعكما القذرة عليها،
وهى هناك تنظر ولا يهمها شيء! طبعاً! فهى لن تفرم
ولا سنتابو واحد، حتى يقضوا عليها، نعم حتى يقضوا
عليها كلها، كلها. ماذا يهم! لكن هى قاعدة هناك
براحتها، ترغى ومبسوطة بحياتها، وقد تركتهما
يمسكان كل آلاتي ويملثنونها بأصابعهم، باللبان،
بالريالة، ما الذى فعلته؟ ما الخطأ الذى ارتكبته أنا
حتى أستحق هذا؟ لماذا حاجاتى؟ حاجاتى. نعم.
ملكى، والهائم تتحدث، ولا شيء يهمها، لا شيء. لماذا؟
لماذا يا إلهى؟.

ولداى بضيا بلا حركة، مذهولين ومرعوبين من
هذا الصوت المتوحش الذى حرمهما من تسليتهما.
بعدها وضعا وهما خائفان فوق رف العرض الآلات
الموسيقية التى كانت بأيديهما، واعترف أننى ذعرت

وارتبكت بما فيه الكفاية من ذلك الهجوم البالغ العنف وهذا الصوت المحموم وغير الإنساني، وكان عليه أن ينتظر على الأقل وهى، الدمية الشقراء، كانت ترتعش من رأسها إلى أخمص قدميها، مرتجفة من الذعر الذى لا يمكن مقاومته وسكتت.

أعتقد أننى، بلا إرادة منى أغمضت عيني عند سماع هذه النداءات كلها التى تلفظ بها وهو يصرخ هذا الرجل.. ربما الآن فكرت بأن انفجار هذا الصوت المرعب، مثل نور جارج، هو ما جعلنى أغمض عيني عند نزول ضربة حقيقية غير منتظرة... وعندما فتحتهما رأيت بجانب الفتريئة حيث كنت أتكئ عليها، قدمين تلبسان حذاءً معمولاً بشكل سيئ وقذر. وعندما رفعت عيني وجدت جسمًا بدينًا، يتشنج من الغيظ، وأن ضرباً بفضاضة أو نتش الشعر، وفى صراخه يلوح بيديه ويهتز كما لو أن ذلك صادر عن شخص به مس من الجنون.. الذراعان ملتوتيان، والأسارير المقطبة، التشويهاات، العينان الغامقتان. لم أعرف بشكل أفضل، فأفضل كيف كانت ملامحه، كما لو أننى بمغناطيس شد انتباهى كله، واحتفظت به فى عيني اللتين انطبقتا وضابقتا مثل عيون الأفاعى عندما تمضى لتهاجم ومنها تخرج نظرة ثلجية تخترق حتى العظم نفسه.

ولداى كانا ملتصقين بى تمامًا. وأحسست بأيديهما الصغيرة عرقانة وتلتمس الحماية.

ودون أن أقول كلمة واحدة ابتعدنا من هناك،
وليس دون نظرة قبل ذلك وللمرة الأخيرة على الدمية
التي ترتدى القطيفة الحمراء القانية والفم على شكل
قلب. لكن هي تطلعت بالفعل دون أن تنظر. مضيت
تائهة في الأنفاق المظلمة للخوف والسخط، حتى
وصلت إلى عمق الليل، حيث بكيت وبكيت في صمت
ويأس والدموع تتشربها المخدة. حتى أن نور النهار
دخل عبر الستارة الخفيفة وأجدهما، فوق أرضية
غرفة النوم، قطع من جيتارات محطمة وقطع من تلك
الدمية الحزينة.

حفل الحديقة

توقف التاكسى أمام بيت بحديقة مضاءة بأنوار
باهرة حيث تتصاعد، أصوات الموسيقى والقهقهات
العالية وما لا يحصى من الأصوات.

- إنها ٣٦,٥٠ - قال السائق.

- ماذا تقول؟ قال الراكب بشكل غريب جداً كما
لو كان خارجاً من نوم عميق.

- إنها ٣٦,٥٠ -

- سته - وثلاً - ثين ونصف؟ عن أ - ي ش - ي
تتلك - لم حضر - تك أنا - لا أعر - ف ما ال - ذى تخب -
رنى به .

- شفت حضرتك - أجابه السائق بصوت غاضب
والرجل ينظر إليه وجهاً لوجه - إما تدفع لى ٣٦,٥٠
وأنت نازل من التاكسى وإما سأضطر أن أستخدم
هذين ولوح أمامه بقبضتيه .

- آه...! نعم. أنزل، نعم. حضرتك خلقك ضيق
(هَبْ) ستهجم على، أكيد.

وبدأ الراكب عندئذ البحث في جيوب حقيبته بعد
أن بحث في جيوب بنطلونه حتى وجد عملة ورقية
مكرمشة وهى التى أعطاها للسائق، وفتح باب
الأوتومبيل وتعثّر أول ما وضع قدميه على الأرض،
وبجهد هائل استعاد توازنه واتجه عبر الحديقة نحو
مدخل البيت.

- اسمع يا أخينا، باقى الحساب معى هنا. صرخ
السائق، لكن ذلك الرجل الطويل، والنحيل، غير
الأنيق، ابتعد وهو يتطوح فى محاولته للتوازن من
جانب إلى آخر كما لو كان دمية بحبل سائب.

- الدعوة من فضلك، أيها الفارس. طلب منه
ذلك الشاب الذى يمسك بالدعوات عند الباب ثم
يعيدها لأصحابها.

- الـ دـ دـ عوه؟ الـ (هَبْ) دـ عوه؟ دعـ وتى، تقـ.
ول حضـ رـ تك أنا لم تكـ ن لدى أـ بدأ دعـ (هَبْ)
وات، ولا بـ طاقات، تعـ رف حضرـ تك. أنا الـ.
وحيد الذـ ي جيوـ به خالية، وهذه الـ ساعة أشعرـ.
بألم شديـ دـ هذا الـ ألم الذى...

- تفضل واعطنى الدعوة، أيها الفارس. ترجاه
الشاب، لكن الرجل النحيل كان بالفعل قد دخل إلى
الصالة تاركًا الشاب يكلم نفسه.

وجد الصالة مضاءة بشكل أقوى إبهاراً ومكتظة بالحضور. نساء متأنقات ترتدين فساتين بتقوية صدر شديدة الاتساع أو بظهورهن عارية وتغطينهن الجواهر والحلى من رءوسهن حتى الأقدام؛ ورجال يرتدون البدلات الفراك أو الإسموكنج، من أناس شديدي الصرامة وأثرياء لطاف في معظمهم.

والرجل النحيل، وعديم العناية بما يرتديه شعر بعدم الراحة من الإسراف في الأنوار، والدخان الذى يلهب العينين بشكل لا يمكن احتماله، أخرج منديلاً متسخاً ومرره لعدة مرات على وجهه. بعد ذلك كوره واحتفظ به صائحاً:

. صباح الخـ. ير على كـ. ل واحد!

والذين وجدوا أنفسهم قريبين منه استداروا نحوه ونظروا إليه بسخرية واستكثار الدون لا أحد. لم يخطئ من علق بأن "نعم لقد طلع الصبح مبكراً جداً على الفارس". عندئذ أطلق الرجل قهقهة مدوية لم يكن باستطاعته أبداً أن يطلقها من قبل على مر السنوات الثمانية والأربعين التى عاشها.

. لا تهت (هب) موا. فذلك ليـ. س له أية (هب) أهمية بالنهارـ. أو بالـ. غيرـ. مهـ. م (هب) وما قلته هو (هب) صباح (هب) سعيـ. دـ. وهذا ما قـ. لته لأننىـ. أعـ (هب) رفهـ. أنا أـ. عرفه...

ومن هذه اللحظة، هتف رجل فى منتصف العمر بصوت خفيض حتى لا يسمعه أحد. لقد نبهتك

بوضوح أن تحاول لمناسبة خاصة جداً أن تأتي مرتدياً بدلة محترمة. وانظر كيف تبدو، بهيئة فى غاية البهذلة! أنت تعرف ذلك جيداً، يا روخيليو إن هذه كانت الفرصة، وربما هى الفرصة الوحيدة التى أجعلك تحضر فيها عند دون رامون وعند دون ثيزار روبيو. أن تحصل على دعوة كان ذلك انتصاراً أم أنك تحب أن تنهى أيامك بهذا الوضع البائس، بمرتب تعيش لا يمكنك أن تحصل منه على أى شىء، بعد الخدمة التى كان على أن أقوم بها من أجلك... عما أمتدحك؟ من قدراتك الإدارية، نزاهتك، وسلوكك الذى لا غبار عليه... والآن أنت تعرض ذلك كله للضياع بحضورك كصعلوك، كما لو أنك مجرد واحد سكران قليل الشأن.

استمع روخيليو إلى التوبيخ كما لو أنه موجه إلى شخص آخر، دون أن يخصص نفسه. وفجأة أدرك شيئاً من كل ذلك الذى قاله له صديقه وهز رأسه كما لو أنه يحاول أن يفيق.

- الدون بيبى - ريكو كان قد أعطا - نى جر - عة صغيف - ره جرعه وا - حده قبل أن أغيب - ر البد (هب) له - نعم - لكى أأتى، جر (هب) عه صغيف - ره لا أك - ثر وأق (هب) سم لك ب الأم المقد - سة، كأس واحدة لكى تمنحنى القوة.

ولكى ترى إذا كان شخص ما يقول لى دون...
لذلك فأنا أرى، أنها لم تكن جرعة صغيرة

فقط، لقد شربت حتى ال rico نفسه، لكن دعنا
(نخلع) من هنا، فلا أحب أن يتحدثوا أكثر في حقك.

- إلى - أين ست - أخذني يا - أو - سكار؟

- إلى الحديقة، هناك موائد، وربما، بقليل من
الحظ نستطيع أن نجد واحدة منعزلة وظريفة/
منفردة حيث يفعلون عنا.

- ال - حديقة - وهل ست - كون هناك ثي - لي -

نا؟

- يمكن أن تكون.

- لكن... هناك - با - بين (هب) وإذا خر - جنا من
وا - حد، أحسن ثي - لي - نا - تد - خل من (هب)...

- امش، هيا.

- أوس - كار. إلى أي اتج - اه. هل م - ن هنا؟ -
سأل روخيليو فريسة لقلق هائل.

أوسكار مشى أمامه، والموسيقى والضوضاء
الشاملة لم تسمح له بأن يسمع صديقه. وسؤال
روخيليو ظل بلا إجابة.

- ماذا قلت - لي عن اتج (هب) ا هنا. من فض -
لك. طلب منه وقد اختفى تماماً - إن لم تقل لي عنها
لن أستطيع أن أقول لك عن ثيلينا - وعاد يشرح له
وهو خائف:

- من فض - لك. اعطني العنوان... أنا لا أعرف
العنوان. ثيلينا أنا لا أعرف أين أنا ولا أعرف أين أنت
الآن، لقد فقدت الاثنين عنوانك وعنواني: أوسكار

قاسى وغير رحيم، لم يقل لى فى أى مكان أنا ولا فى
أى مكان أنت. فى أى مكان نحن يا ثيلينا؟...

كانت الحديقة وسط أنوار مصابيح ملونة بين
أغصان الأشجار وشمعدانات تخلق أضواؤها جواً
خيالياً. أيضاً كانت هناك أشجار مكسوة بشرائط
ملونة من التى يترامى بها الناس فى الحفلات وأخرى
مذهبة ومفضضة والتى بها أضواء مصابيح والتى
تعطى تأثيرات موحية. بعض الموائد وجداهها موزعة
حول حوض السباحة، الذى بشكل متعمد لم يكن به
أنوار ما. ومن فوق منصة كانت الفرقة الموسيقية
تعزف بشكل صاخب. الإيقاعات الأكثر شعبية لتلك
اللحظة.

أوسكار راح وجاء وهو يجروخيلىو ويبحث عن
مائدة أكثر خصوصية، حتى ظهرت له واحدة تتفق وما
يريده. جلسا وحرص أوسكارعلى جعل روخيلىو يبقى
مراقباً للمشهد وفقط يظل وحده أمام تلك الحديقة
مترامية الأطراف. وعندما اتخذا مكانهما بالفعل،
لاحظ أوسكار مندهشاً أن هناك دموعاً فى عيني
صاحبه:

- لكن، يا رجل! أفى سنك هذا... هيا نشف
عينيك.

وفى (من أجل) هذا الوقت، وبدون عزاء كبير من
أوسكار، كل العالم كان قد اقتحم الحديقة التى أخذت
تشغل بها الموائد أو تنهياً لشغلها.

- أعتقد أن علينا أن نعمل فى تشكيلة حول الماء -
علق مع آخر، شاب كان هناك قريباً منه.

- وطبعاً أيضاً عرض الخلاسيات المطليات بلون
البلاتين.

- يقولون إن دون رامون سيطلق كلابه فى ال
suly...

- هذا العجوز دائماً يرتدى عادة أغطية من
الدرجة الأولى.

- لا أستطيع أن أنكر أن ذوقه رفيع، وومثل
الآخرين رائع جداً يتبع ما يحبه.

- هل تعرف حض- رتك أين هـ - ي ثيليه - نا؟

- يا سيد إن ما أعرفه أنا فقط هو أين كئوس
الويسكى والبرنسيسات، ماذا تريد حضرتك واحد أم
واحدة؟

- أنا أريد أن - تقول لى - أين هـ - ي ثيليه - نا - ثيه -
لينتى.

- هيا يا راجل، اشرب هذه الكأس فى صحة
ثيلينا - ووضع كأسه فى اليد المرتعشة للسكران.

بقى روخيليو للحظة كما لو أنه لا يدرك ودون أن
يرى كأس الويسكى، بعد ذلك، وفجأة، تجرعها دون أن
يترك ولا قطرة بها. أنا لا يجب أن أشرب؛ لأنك لا
تحب ثيلينا التى أشرب ما تقوله وأثمالي... لكن أنا لا
أشرب يا ثيلينا، كأس واحدة فقط أو اثنتين، ولن يمر

شيء على لساني الذي كثيراً ما ورطني. ولا يكون
عندك أهمية ثيلينا تلك الليلة فكرت أنك ستعودين
مبكراً.

- أهنتك يا صديقي، بأنك تلعب بجنجرتك، واحد
ويسكي آخر وستمضي ثيلينا إلى عمق النسيان....
والشباب المتألق ذهب ليحيى بعض الفتيات اللاتي
دعونه من مائدة أخرى.

قدم أوسكار سيجارة إلى روخيليو الذي أخذها
بشكل آلي:

- لا شيء هنا (هب) لنشـ ربه . صاح بغضب .
ليأتوا لـ . نا بشيء نشـ . ربه . شيء (هب) لنشـ . ربه .
نعم . أنا أرـ . يد أن أشـررـ . بـ ، أشـررـ . بـ...

- اهدأ! أمره أوسكار . لأن العرض سيبدأ الآن .

كل الأمور تتساوى ثيلينا كما كنت تقولين .

لا شيء قد تغير خفك الأخضر الذي أهديته لك
في عيد الميلاد تحت السرير، الغرفة والبيت كله تملؤه
أشياءك بعطرك الموجود في كل النواحي لكنك لست
موجودة يا ثيلينا، ثيلينا أين أنت... زو . ري (هب)
ناشف، ناشف وأنا بالفـ . عل لا أستـ . طيع لا أن أتـ .
كلم، نعم، لأن لا... ما هذا المكاـ ن (هب) حيث لا
يوجد من يـ . تون لنا فـ . يه بشيء نشـ . ربه؟

- روخيليو! سيطر على نفسك، من فضلك، أنا
وضحت لك، فكر في السخرية التي ستحدث منا
عندما سيأتون ليخرجونا من هنا.

- ما الذى يريد السادة أن يشربوه؟

أخذ أوسكار كأس ويسكى وروخيليو أخذ كأساً
أخرى، لكنه قال فى نفس اللحظة.

- أنا لا . أر . يد أن أشرب . أر . يد أن تأ .
خذنى إلى ثي . ليتنا، ثيل . ينا لأن ثي . ليتنا راحت . .
وعندما قال ذلك تغير صوته حتى وصل إلى أن يكون
نحيباً . ثيل . نيا راحت . حض (هب) رتك، هل تع .
رف؟ ثيل . ينا راحت يا ثيل . ينتى . وفى هذه اللحظة
وقع روخيليو بجسمه كله وكرسیه فوق سيدة ثرية
ومثقلة بالحلى والجواهر وبالإضافة إلى أنه لم
يستطع .

- هل تف . در تف . نى أغ . (هب) نية؟

- لقد أحرقت فستانى . تعالت الصرخة من المرأة
نفسها، التى حسبت أن روخيليو أطفأ السيجارة فى
الجونة القطيفة .

- ال . أغنية التى عن جن . ونها؟ تم ا (هب) م!
حضر . تك عشيق لـ ير . را (هب) تا .

- إنه لا يطاق، إنه لا يطاق! إنه يبهدل فستانى
بشكل دائم، وفستان مثل هذا! هذا غير ممكن، هذا
غير ممكن .

السيدات التى كن يشاركنها المائدة وأخريات كن
جالسات بالقرب منها، التفنن حولها وهن يطلقن ألف
تعليق بصوت مرتفع ويتهامسن فيما بينهن فى الوقت

الذى تعزف الفرقة الموسيقية، ميلودى، بالإيقاع شديد
الاصطخاب والحشد مشعث الشعر إلى الحد الذى
يغطى فيه الشعر الوجه تماماً، ويمكن القول بحق إنها
تعزف بلا تعقل - فستانى، فستانى!.

- لكن أية مصيبة، مجنونة، فستانك جميل
جداً!.

- وثمانه غالٍ جداً، أنت تعرفين يا عزيزتى، أنه لا
يقل عن محلات بالين ثياجا. لقد أحضره رامون من
باريس عندما وجدته يناسبنى.

- أنا لم أظن أبداً أنه من بالين ثياجا. من
الواضح أنه يمكن رؤيته.. على بعد فراسخ، لأنه
فستان رقيق، لكن هنا فى المكسيك توجد حاجات
بالغة الجمال، ولا حاجة لطلبها من تشابا ريلى، أو كما
تقولين!.

- محلات بالين ثياجاغالية، بالغة الغلو. ورامون
أمرهم أن يفصلوه خصيصاً من أجلى وراحوا يفصلونه
ليتنفق مع لون عيني وشعرى... وانخرطت فى البكاء.

- أية غلطة تعتبر فى ارتكاب هذه الأمور، إنها
جريمة، جريمة حقيقية!.

- مثلما تلحقين الأذى برفائيل أو ليونادرو...

- عم تت - كلم هذه (هب) السمي - نه - تساءل
روخيليو موجهاً السؤال إلى صديقه دون أن ينتبه إلى
أن أوسكار احمر وجهه تماماً من الخجل.

- نعم، يا عزيزتى، كما يقولون فإنها جريمة حقيقية!.

- يجب استدعاء البوليس...

- لك. ن. ل. اذا تصد. رخ تلك الم. رأة. ل. اذا
(هـب) تت. وجع

ثيلينا أنا أعرف أنك تحبيننى حقيقة تيلينا كم
تحبيننى أنا أعرفه أنا نفسى أعرفه عندما تغطيتها
معى؛ لأننا ليس معنا مال دائماً المال الملعون أنا أقول
لك... تنزلين بالفستان الرمادى الذى أحبه جداً
"وبعد حكيت لى ذلك" أنا سأقول لك إن... كم كانت
ثيلينا جميلة فى أمسية يوم الأحد تلك فى المساء لا
أنسى ما يثير الشبهة بشدة فأنت دائماً جميلة وكنت
جميلة جداً... لن أتأخر بعد أن نتكلم... وأنا لم أحب
أن تخرجى تلك الليلة أنا فقط أحب لكن أنت... أنا
أحببت أن أقول لك... سأعود الآن... بالكاد أعطيتها
قبلة على الخد لا تتركينى ولا أن أقبلك فى فمك أنت
ستكرمش فستانى اتركنى حتى لا تفسد المكياج وفقط
لوحت بتلويحة الوداع بيدك وظلمت أنا أنتظرك
أنتظرك يا تيلينا أين أنت يا تيلينا، أين أنت.

- دائماً فى كل ناحية بالدنيا هناك كائنات هكذا
من الرعاع، ناس من الذين لا الواحد يعرفهم ولا
يعرف من أين يخرجون علينا، والذين لم يوجه لهم
دعوة أبداً.

- لكن لو أن هـ . ذه المرأة هي نفـ . سها، نفـ . س
(هب) المرأة! قلـ . لى يا أوسكار من تلك المـ . رأة الفضـ
ـيحة القدـ . بيحة والسـمـ . ينة لو (هب) نعم، هذه السـمـ
ـينة الشديدة . القبح؟

وأوسكار الذى لم يكن يعرف أين يخبئ نفسه
وطلب من الرب أن تنشق الأرض وتبتلعه، رد عليه:

- إنها زوجة دون رامون، إنها صاحبة الحفل التى
تستضيفنا، جميل ما فعلته! لماذا يا ربى، لماذا تجلب
على نفسك العار والبخت الأسود .

- أنا لا أعرفـ . ها ولا أرـ . يد أن أعـ . رفها . أتـ .
رف يا أوس (هب) كار لم تعجـ . بنفى أبـ . دأ، أبـ . دأ
فى حـ . اتى التعـ (هب)ـ . سة لم أعجـ . ب بتلك
النسوة الشديدة (هب) السـمـ . ينة . هذه الزعطة المـ .
عونـة، والصرخات أيضاً فيفى تنتظرك وهى شديدة
الحزن لو رأيت كم هى حزينة وكم تحس بالوحدة دون
أن تخرجى بها للتنزه يوم بعد يوم ودون أن تأكل لأيام
عديدة كلى يا فيفى... ثيلينا ستأتى غداً لتراك أنا
حاولت، وحاولت أن أخفف عنها ولكن المسكينة الكلبة
الصغيرة البالغة الصغر البالغة الصغر أنت دللتها
كثيراً نعم أكثر منى، أليست هذه هى الحقيقة؟ أنت لا
يمكنك أن تنكرى أن المسكينة فيفى معتادة على عادات
سيئة . تنظر لى بعينين شديدتى الحزن وتستمر وهى
تنظر إلى يا ثيلينا تنظر بعينين شديدتى الحزن
شديدتى الحزن حتى أننى...

المنوعات التى تقدمها النسوة السود تبدأ ...
والشابان القريبان من مائدة أوسكار وروخيليو استأذنا
هما فى الجلوس إلى مائدتهما . وافق أوسكار بشكل
لطيف:

- بكل سعادة، فى خدمتكما، تفضلا اجلسا . لكن
بينما كانوا يتبادلون الترحيب بحضورهما، فكر هو،
فريسة لليأس، إنه الآن فتح على نفسه أبواب
الجحيم.

. أتعرف حضـ . رتك (هب) ثيلـ . ينا؟

. ليست لدى الرغبة .

. ثيلـ . نا بالغة الجـ . مال (هب) لدـ . يها عينـ . ان
زرقاوان (هب) والشـ . عر نعم الشـ . عر أسـ . ود أسـ
(هب) ود وأسـ . نانها شديدتى الـ . بياضـ . لها عيـ نان
زرقاوان مثل زرـ . قة الفجر كما يقـ . ول الـ (هب)
مايسترو لاـ . راـ . ولـ . ها جسـ . م أجـ . ملـ . نعم يا سـ .
يدى أجـ . مل (هب) هذا ما أقوـ . له أنا لأـ . ننى أعرـ .
فه عاريا منـ . أى شىء (هب) مثل أولئكـ . وأشار إلى
الخلاسيات الملونات بلون البلاطينـ . عارـ . ية من أى
شىء لأنها امرأتى، هل تـ . عرف حضـ . رتك؟ لـ . ها
شعر أسـ . ود أسـ . (هب) ود وينزل حـ . تى تحت الكتـ
ـ . فين ويتـ . موجـ مثل كيف يتموج شعر ثيليناـ .
والـ . عينان (هب) زرقاوان، شديدتا الـ . زرقة مثل
واحدة تراـ . لالا لالا لالا .

- الآن أنت فى حالة جيدة يا روخيليو والأفضل
أن تتفرج على المنوعات.

- هل ترغبيان فى تناول شراب ما يا سادة؟ واحد
ويسكى، كونيالك، جن وشيء منشط؟

- أنا سأشـ. رب ما سيأتى لـ. كن ثيلينا. تقـ. ول
إننى.. اسمـ. ع حضـ. رتك..

وجذب كم الشاب الجالس بجواره - ثيـ. لينا
(هب) هى الأـ. جمل من هذه (هب) المرأة المرتدية
فستان أبـ (هب) يض إنها لا تستحق أن توضع بجوـ.
ارها ثيلينا. ثيـ. لينا (هب) لـ. ها شـ. عر أكثر سوـ.
أدا والـ. عينان أكثر زرـ. قة لكن ثيلـ. ينا راحت
راحت... هل تعـ. رف حضـ. رتك؟

- نعم، طبعاً، الآن أعرف أين أقضى وقتاً طيباً.

- لكن هى - كا - نت ثيلـ. ينتى - وعاد ليجذب
الشاب الآن من طية صدر السترة.

- هناك ثيلينات كثيرات حيثما أردت، لو كنت
مهتماً ستجدها بعد توجهك إلى ثيلينا، ثيلينا أين أنت
أيام وليالى وأنا أنتظرك أسابيع طويلة دون أن أنام أو
أكل أين أنت يا ثيلينا قولى لى من فضلك هل تعرفين
يا ثيلينا أنا سوف أقبض مرتباً محترماً وسأشترى لك
حاجات كثيرة، كثير من تلك الأحذية ذات الجلد اللما؟
والتى تحبينها جداً، وسوف أكون غنياً، وعليك أن
تعرفى يا ثيلينا أننى سأكون غنياً جداً فى الحقيقة.

ستكون عندك كل الفساتين التى تريدينها فى الليل
أتنصت على خطواتك وأنت تصعدين السلم وضحكك
وسأشترى لك مئات من زجاجات العطور آلاف من
زجاجات العطور أمشى ساعات وساعات وأنا أبحث
عنك والآن لم يعد لدى أحذية ولا أرجل وأنا أبحث
عنك فى كل النواحي فى المتنزهات، وعند أبواب
الخروج من السينما لكن أنا أعرف أننى سأجدك يا
ثيلينا، فيفى ستموت إذا لم ترجعنى وأنا أيضاً وأنا
بالفعل لا أعرف من يحمل أكثر الوجهين حزناً إن
كانت فيفى أم أنا سأفعل ما تريدينه، سأغسل كئوس
الخمير، التى كم كرهتها بشدة سنذهب إلى الحفلات
وسأشترى لك بيتاً مثل هذا محاطاً بكثير من الأشجار
والزهور وحمام سباحة وسأخذك إلى السينما أيام
الأحد والخميس وكل يوم لو أحببت لأننى سوف أكون
غنى جداً وعندى الأموال أكوام وعندى أوتومبيل تحت
أمرى دائماً فى كل الساعات أسمع صوتك تدلّمين
فيفى وتذهبن لتهدى فستاناً أحمر مثل هذا الذى
ترتدينه عندما تعارفنا كم من المرات تعالى التصفيق
وكم تعالت ضجة تنى آثار ضجة هائلة، ثيلينا أنا أريد
أن أكون وحدى معك عن أن أكون مع نساء مرعبات
جداً فليذهبن ويتقطعن أشلاء، أشلاء كثيرة ويجب أن
أكنسهن بمكنسة لكننى بالفعل ليست لدى مكنسة
أكنس بها البيت طوال الأيام لكى تجديه نظيفاً، أنا
أراك وأنت تسيرين تهزين مؤخرتك، دعينى أراك
دائماً وأنت تسيرين وتضحكين وتضحكين بقهقهات

كما تعرفين مبدية أسنانك أنا لا أحب أن أراك غاضبة
ولا حزينة المياه لها لون شديد القتامة ولا تظهر فى
عينيك أنا أقضى الساعات وأنا أتأته السماء هناك
توجد أعين كثيرة لك وبيتنا يثير فى نفسى الخوف،
يثير فى نفسى خوفًا هائلًا وأنا وحيد لكن كم هى
صاخبة تلك الضجة، لماذا الضجة صاخبة وناس
كثيرون حيث أنا ثيلينا أين أنت...

- أر - يد أن أش - رب، هل تسمعوننى؟ أش - رب.
أش - رب.

ودون أن ينتظر أكثر قام ومضى يترنح قبل أن
يتمكن أوسكار من أن يوقفه وجعل روخيليو يتفادى
الموائد بصعوبة بالغة، وبكثرة، حتى إن أوسكار لم
يشك فى أنه سوف يقع مرتميًا ببطنه على واحدة
منها، ومع ذلك، لم يحاول بالفعل أن يتبعه وقرر أن
يتركه لمصيره، وعلاوة على ذلك، فقد فكر أن يجد
الكأس وأن يعيدها. إلى أين أكثر من هذا سيسطيع
أن يذهب فى هذه الحالة؟

روخيليو مضى يتعثر فى كل خطوة حتى أبعد مكان
قبالته من الحديقة، مكث لفترة غير قصيرة مستندًا
على الجذع السميك لشجرة، وهو ينظر إلى حمام
السباحة محددًا فى مياهه، التى تتعكس متذبذبة عليها
أنوار الفوانيس المعلقة بين فروع الأشجار، وهى تحدث
فى داخل المياه أشكالاً لا نهاية لها.

هناك حيث تختفين منى إذ أنك تحت تريننى وأنا
أتألم وأتألم حتى لا أستطيع بالفعل أن أختبئ من

عينيك الزرقاوين فى غيمة المياه تضحكين تضحكين
من أننى لا أفعل ولا أنا قادر على أن أجذك لكن الآن
أعرف لو أننى فى هذه الساعة أنك هناك فى العمق
مستلقية وعارية تنتظرين وتضحكين وثغورك السوداء
متناثرة فى المياه، والأسماك تدخل وتخرج تجرى فوق
جسدك كله دون أن تتعب فوق نهديك وفوق بطنك
تلعب فوق هذا الجسد، الذى هو لى لوحدى لى
لوحدى لكن اسمعى ما أقوله إنه لن يكون للأسماك
ولا للمياه التى تحيط بك وتخفيك مياه ملعونة التى
تغطيك والتى تحول بينى وبينك و تبعدك عنى وعن
جسدك الذى هو لى لوحدى اسمعنى لا للأسماك ولا
للمياه لى فقط، لى لى.

ودخل المياه هذا الذى أصابه الجنون بين
الصرخات وتعالى التصفيق، وظهرت بعض فقاقيع
وتموج سطح المياه لمرة واحدة لم يرها أحد.

جريسيلدا

وقفت الفتاة الشقراء مترددة للحظات أمام البوابة المواربة، لكنها قررت فى النهاية أن تدخل. ومازال استغرابها للإهمال الذى شمل الحديقة كلها، حيث إنها أمكنها بالكاد أن تسير عبر أدغال الحشائش التى أفسدت كل شىء، حتى الطريق المؤدى إلى البيت، والذى أمكنها رؤيته فى العمق بين الأشجار العالية، والنباتات نمت بشكل عشوائى. وبلا شك أنه قد قضى زمنًا طويلًا لم يحدث فيه تشذيب لتلك النباتات. وشمس الرابعة عصرًا كانت لافحة تعشى البصر، وكان على الفتاة أن تضم يديها كحافة القبعة أمام وجهها لتتمكن من أن تمر. وطائر اندفع طائرًا عند مرورها فأفزعها. والسويترا الأسود ظل مشتبكًا بين الضروع الشائكة لشجرة ورد قشتالية، إلى أن انتزعته بكل حرص حتى لا يتمزق، فخلصته وحملته على ذراعها. وشعرت بالاستياء بعصبية؛ لأن عليها أن تخترق هذه الحديقة بطريقة غير تقليدية بالمرّة، لكنها

لم تستطع مقاومة الرغبة فى معرفة هذا البيت القديم الذى تراه دائماً، مغلقاً ومن المحتمل ألا يكون مسكوناً، عندما كانت تمر عليه فى طريقها إلى مكتب بريد سان خيرونيمو فلذلك، لو كان باستطاعته أن يجتذبها لمغامرة صغيرة، لكان ذلك شيئاً جديداً على الأقل. شيئاً يكسر إذا حدث ولو للحظات قصيرة رتابة حياتها فيقلل من سماعها للمراثى الأبدية النائحة من أمها، بذلك فكرت الفتاة الشقراء عندما وصلت إلى ضفة البركة التى تحجبها النباتات والأشجار. امرأة ترتدى أيضاً رداءً أسود لقيتها جالسة على دكة تحت ظل شجرة حور. أول ما اكتشفتها، فكرت الفتاة فى أن ترجع، لكن المرأة انتبهت لوجودها، بسبب خششة الأوراق الجافة الساقطة.

- عفواً يا سيدتى، أن دخلت هكذا، لكننى لم أستطع مقاومة الفضول لمعرفة هذه الحديقة التى أثارت فضولى بعزلتها وهجرانها.

- منذ سنين وهى مهجورة، وأنا الوحيدة التى آتى من حين لآخر، لكن لا تمشى، ابقى قليلاً من فضلك لتتحدث، اجلسى حضرتك.

ترددت الفتاة وأرادت أن تختلق عذراً ما "سيكون من غير اللائق ألا أقبل بعد أن دخلت هكذا..." وجلست بجوارها على طرف الدكة.

وهى تقدم نفسها بشكل واضح قالت المرأة التى تضع نظارة سوداء بعدسات سميقة:

- أنا اسمى جريسيلدا .

- وأنا مارتا . أجابتها الفتاة، وبدأت تتطلع إليها
بطرف عينيها، لابد أنها بلغت الخمسين عاماً أو أكثر .
فالشعر أشيب، ومازال يحتفظ حتى الآن ببعض
خصلات سوداء . وهى لا تستعمل مكياجاً، والنظارت
تحول دون التقدير الحقيقى للامح وجهها . ومع ذلك،
تستطيع أن تلفت النظر بكونها كانت بالفعل امرأة
جميلة، امرأة لابد وأنها كانت رائعة الجمال .

- الإنسان يعود دائماً للمكان الذى له ذكريات فيه
- قالت جريسيلدا ذلك، كما لو أنها تحاول أن تفسر لم
هى موجودة الآن فى هذه الحديقة المهجورة .

- هذا حقيقى . أجابت مارتا . فنحن - كما تقول
والدتى - تلح فى التفتيش عن ذكريات بابا وهو الذى
مات منذ مدة قصيرة .

- كم بكت عليه .

- أُمى غير قابلة للعزاء، وتحب أن نأتى مبكراً
هنا، حيث كنا نقضى دائماً الإجازات، والذى كان بابا
يحبهِ كثيراً . لكن أكثر من أى شىء آخر، أنا أعرف أن
ماما تحب أن تكون بعيدة عن المدينة، وعن كل الناس،
هل تعرفين حضرتك أننى أحياناً أخاف أن تكون
هى... .

- نعم، إنه لشىء قاس وبالع الصعوبة تحمل ذلك
النوع من حالات الفقد . أنا أعرفه .

- أنا أيضاً أحسسته بقوة بالنسبة ليابا، لكن...
أنا لُدى آمال، مشاريع، خطط، وعلى العكس، هى...
- كل شىء ينتهى مع مرور الزمن، لا شىء يبقى،
ولا أحد. أنا أيضاً فقدت زوجى.

لم تعرف مارتا على الفور ما الذى تقوله لها،
متأثرة بتلك الدرجة للصوت المرتجف والباعث على
الحزن الغامر، الذى تشى به الكلمات. تذكرت ليلة أن
اتصلت بها بنت عمها، لتخبرها بأن ريكاردو مات فى
نيويورك. كل شىء قد توقف فى هذه اللحظة كما لو
كان الزمن والحياة نفسها قد توقفا بضربة، فقد وقع
عليها الخبر وقع الصاعقة فتحطمت، دون أن تعرف
ماذا تفعل، فم تفكر... توقفت حينئذ فى صمت طويل
بعد الذى قد وقع وحاولت أن تجد مبرراً:

- خطيبى الأول مات. مات بشكل مفاجئ. لقد
عرفنا بعضنا منذ كنا أطفالا ووقعت الضربة المروعة.
- هو أيضاً مات عندما كنت أصغر من أن
أصدق. لقد كان وقتها شاباً مكتملاً ونحن أحبيننا
بعضنا بشكل رائع.

- هل مر على ذلك وقت طويل؟

لم تسمعها جريسيلدا. كانت مازالت غائبة عما
حولها. ثم قالت فجأة، كما لو أنها رجعت من مكان
بعيد، وخلعت يديها مرتعشتين ميدالية:
- سوف أريك صورته.

وعندما فتحتها، وجدت مارتا صورتين مصغرتين بلغتا حد الكمال بشكل واضح: صورة لرجل، وصورة لجريسيلا. والاثنان كانا فى شبابهما وكانا جميلين، وفوق ذلك كله كانت هى بعينين واسعتين لهما لون غريب، أزرق، رمادى، أخضر.. لون لا يمكن وصفه، دخان أزرق مخضر. والشعر فاحم ينسدل على كتفها صانعاً إطاراً بيضوياً تماماً، والعينان زائفتان لدرجة أن مارتا لم تستطع التوقف عن إبداء إعجابها بهما.

- زوجان جميلان، والصورتان دقيقتان جداً.

وأحسست بأن شيئاً بداخلها، سبب لها ألماً وهى تتأمل المرأة الآن.

- كان هو بالغ الجمال. حتى أن النساء فى الشارع كن يتلفتن ليتطلعن إليه.

- وأنت أيضاً يا سيدتى، وأى عينين فوق الوصف عيناك، بلون لم أر مثله فى عيون أخرى. هذا ما قالتة مارتا وهى تعيد إليها الميدالية.

- وهو أيضاً كان مسحوراً بهما.

- هل حدث ذلك منذ زمن طويل؟ - وعندما أكملت مارتا سؤالها توقفت؛ لأن هذه كانت المرة الثانية التى سألتها عنه.

- نعم، مضت سنوات. كنا هنا فى هذه الحديقة، حيث كنا نأتى لنقضى الصيف، أيامها كان من يعيشون هنا قليلين جداً، ولم تكن هنا طرق للسيارات، وكان

الواحد يشعر بأنه فى الريف تماماً، بعيداً عن المدينة.
- وهذا ما أشعر به أنا الآن، مقطوعة الصلة
بشكل تام عن أصدقائى وأشغالى، فى وحدة تصيبنى
بكآبة مزعجة.

- لقد كنت سعيدة جداً فى هذا المكان. لن أنساه
أبداً.

- أما أنا فعلى العكس. لقد عانيت عذاباً حقيقياً،
وليس لدى ما أفعله، ولا إلى أين أذهب، أسمع على
مدار اليوم نواح ماما المتواصل، وأراها وهى تنتحب
دون عزاء. وأحياناً لم أكن أتحمل أكثر من هذا،
وأشعر باليأس من كونى لا أستطيع أن أفعل شيئاً، لا
شئ بالمرة... لذلك أخرج فى وقت العصارى، أنتهز
فرصة نومها القصير بعد الغداء، وتلك هى الساعات
القليلة التى ترتاح فيها، لأنها تقضى الليل ساهرة
تطوف بأرجاء البيت وهى تنهنه باكية. وعندما أخرج
أذهب إلى مكتب البريد وأترك الخطابات، التى أكتبها
لخطيبى الموجود فى ميريدا.

- مسكينة يا صغيرتى! هذا عبء ثقيل عليك وفى
مثل سنك أن تمرى بمثل هذه المواقف. عندما يكون
الواحد عجوزاً، يعيش بالفعل مع ذكرياته، يطاردها
راغباً فى استعادتها، كما لو أنها صارت أجزاءً من
شئ وانكسر ويريد أن يعيد تشكيله.

أصغت مارتا إليها وهى تتكلم وفكرت فى الظلم
الذى تعرضت له أمها معها، والحكم عليها بهذه الوحدة

غير المعقولة. الآن لديها بالفعل ما يكفى فيما يتعلق
بأبيها، ونظرت إلى البركة التى غزتها وانتشرت فيها
زنابق الماء.

- لذلك السبب نفسه لم أجد الحماس لبيع هذه
الحديقة. فهنا رأيته لآخر مرة، وهنا بقيت أشياء
كثيرة.

- أبى مات فى المكسيك، لكن ماما قالت إن لنا
فى هذا المكان ذكريات جميلة للغاية، كما إننا، علاوة
على ذلك، لا نريد أن نرى أحداً...

- الشيء الوحيد الذى أتمناه أن أبقى هنا، مع
ذلك...

- ألم يرجع أحد أبداً يعيش هنا؟

- أبداً لا أحد. فقط فى أوقات العصارى مثل
هذا الوقت الذى أهرب فيه دون أن ينتبه لى أحد.
- لابد أنها كانت بالغة القسوة تلك السنوات.

قالت المرأة بصوت متقطع:

- لا يمكنك أن تتخيلى حضرتك كم كانت قاسية؛
عندما رأيته ميتاً فكرت أننى من المستحيل بالفعل أن
أعانى أكثر من هذا، وبعد ذلك...

- لم يكن بإمكانك أن تنسى، وأنه مع مرور
الزمن، ستكون الذكرى أقل إلحاحاً وتخف شدة الألم؟
- لا، سيكون ذلك مروعاً أكثر من كل شىء، ولا
يمكن القبول به، بل هو بحث متواصل عن الذكريات.

عن أشياء صغيرة مثل رائحة، صوت، أو كلمة. أشياء
تشكل داخل الواحد منا هذا الذى راح، إنه الشيء
الوحيد الذى يبقى لنا، الوحيد الذى يسندنا ويساعدنا
على مواصلة الحياة.

- وهذا أيضاً ما تفكر ماما فيه.

- كثيراً ما أعود هنا لأرجع مستهلكة، وتقريباً
ميتة. ولذلك فهم لا يتركوننى لأجىء إلى هنا، كل مرة،
أجدد كل ما مضى تلك العصرية، وأسمع كلماته فى
الوداع، وأراه وهو يرحل.

- هل كان بعيداً؟

- لا. إلى مدينة المكسيك فقط، على بعد مسافة
يقطعها بالحصان. كان فارساً رائعاً. تلك المرة... تلك
المررة قضيت العصرية هنا إلى جانب هذه البركة وأنا
أتسلى بالتطريز حتى حل الليل، بعد ذلك صعدت إلى
البيت؛ لأعد العشاء فى انتظاره. بدأت تمطر، تمطر
بشكل عاصف كما تمطر دائماً فى هذه الناحية. وهو
لم يعد.

أخذت الشمس تختفى، وانقضت العصرية.
ونظرت مارتا إلى ساعتها خفية، كانت الساعة قد
وصلت إلى السادسة، ولا بد أن أمها قد استيقظت من
نوم القيلولة، وتنتظرها الآن فى قلق شديد. أبداً لم
تتأخر هى عنها هذا القدر. ولكن، كيف تذهب الآن؟
لا يمكنها أن تقطع حديث السيدة.

- كنت مضطربة جداً كما لم أكن أبداً هكذا من
قبل، فى حالة عصبية غير عادية، كما لو أن شيئاً

سيحدث. دقت الساعة العاشرة، ثم الحادية عشرة،
كنا قد سخناً طعام العشاء مرات عديدة، هو لم يصل
واستمرت وهى تمطر، تمطر دون توقف...

الرياح رطبت المساء وهى تحمل عطر الياسمين
ونباتات سلطان الجبل، وغسق تمدد فيما بين
الأشجار الطويلة.

- السماء السوداء شققته البروق، ولم أسمع
صوت ركض حصانه. هذا الركض الذى أعرفه حتى
فى الأحلام. انتظرت فاقدة الصبر، كل مرة أكثر قلقاً
وانشغال بال يقطع نياط قلبى. وفجأة دخل الخدم به،
وكان غارقاً فى دمه.

وتقطع صوت جريسيلدا غارقاً فى انتحاب هز
كيانها كله. وأخذت مارتا تتأملها وهى مضطربة جداً.
تمنت أن تكون فى هذه اللحظة قد رجعت إلى البيت
ومع أمها. تمنيت ألا تكون قد دخلت أبداً إلى هذا
المكان.

بدأت تشتد رائحة الياسمين وسلطان الجبل
لتمسى أكثر قوة، بقدر ما كانت شبيهة فى شدتها،
وراحت توغل فى الظلمة وجو الكارثة، مثلما الليلة
نفسها، والأشجار والمياه اسودت فى البركة. وقالت
جريسيلدا وهى تحاول أن تسوى فستانها إلى حد ما:

- الحصان ارتاع من الصاعقة، فارتطم بالشجرة.

والشئ الوحيد الذى أمكن لمارتا أن تقوله:

- يا له من شئ مروع!

- فى تلك الليلة قررت أن أقتلع عينيّ.

ورفعت منديلها إلى فمها لتكتم صرخة.

مارتا أيضاً فكرت فى ارتكاب أعمال عديدة تلك الليلة، عندما علمت أن ريكاردو مات فى نيويورك، ترمى بنفسها من النافذة، تأخذ أقراصاً، تندفع أمام مرور القطار...

- فى هذه اللحظات يفكر الواحد فى ارتكاب أفعال غير معقولة. وهذا أمر طبيعى.

- اقتلعت عينيّ، ورميتها فى البركة حتى لا يراها أحد بعد ذلك. قالت جريسيلدا وخلعت النظارة وغطت وجهها بالمنديل لتتار باكية بلا صوت. وهكذا بدت دقائق أو قرون، أبدية، بينما الريح تحرك أوراق الأشجار فكانت كما لو أنها بكاء طويل مصاحب لها.

ولم ترغب مارتا فى هذه الساعة سوى الهروب فى أقرب وقت ممكن من هذه المرأة، ومن الحديقة المأسوية التى صارت أشباحاً والعطر الكثيف الذى يغمرها.

- لا بد أن أنصرف، يا سيدتى، لقد تأخر الوقت كثيراً. قالت وهى تقف على قدميها وتلمس برقّة كتف جريسيلدا. لا بد أن أرى مشغولة علىّ.

توقفت المرأة عن البكاء ورفعت وجهها، وعندئذ أخذت مارتا تتأمل فى الوجه الذى تغير شكله بفعل

الألم، وفي الفجوتين الكبيرتين الغائرتين، بينما عينا
جريسيلدا، مئات، آلاف الأعين، زنابق في البركة،
تحولن إليها، إلى أحداق، لا حصر لها، خضراء،
زرقاء، رمادية، وبعد ذلك، أخذت تطاردها وهي تظهر
من كل ناحية، كما لو أنها تحاول أن تحاصرها،
وتنقض عليها وتفترسها، عندها جرت وهي يائسة،
لتوسع من خطواتها بين هذه الأشباح الحية لهذه
الحديقة.

الصيف الأخير

كانت لابسة فستاناً من الشيفون بكرانيش حول الرقبة وعلى الأكمام. والشعر كستنائي غامق، ملموم للخلف بشريط القطيفة السوداء، تاركة فسحة لوجه شاب بأسارير متناسقة، في الوقت الذي تبرز فيه العينان اللتان تظللها رموش طويلة. وهي لا تشع فقط شباباً ونضارة هذه الشابة / الفتاة لكن سلاماً عميقاً وسلام. لكن هذه الشابة الجميلة، لأن هذا في الحقيقة ما كانت، والتي كانت مرتبة مثلها، وتتنفس بعمق من كل مسامها.. كانت داخل برواز موضوعة فوق التسريحة، قريبة من المرأة. هكذا كانت في الثامنة عشرة قبل أن تتزوج، ولقد أراد بيبي أن تعطيه كهدية صورة في عيد الميلاد، وقد خرجت جميلة جداً، نعم، في الحقيقة. ولقد عانت ألماً شديداً عند مقارنتها بالشابة التي في الصورة، بالصورة المنعكسة لها في المرأة، صورتها هي: صورة امرأة ناضجة، سمينية، بوجه مرهق، ذابل؛ حيث بدأت تلاحظ

التجاعيد، وقلة العناية أم الأفضل أن نقول قلة العناية بكل ما يخص شخصيتها: الشعر البيضاًوى الأشيب، لبسها لأحذية بكعب واطئ، وفستانها المستهلك، وموضته بطلت. لا أحد سيفكر أن تلك التى كانوا ينظرون إليها خلف الواجهة الزجاجة لاستوديو التصوير قد صارت هى، نعم، هى، عندما كانت روحها ممتلئة بالغرور والخطط، بعكس ما هى الآن...

- ماذا جرى لك يا ماما؟ - سألها ريكاردو؛ لأنها كانت جالسة وقد خبأت وجهها براحتيها.

جالسة هناك فى مواجهة التسريحة، وحيث كان عليها أن تهيئ نفسها للخروج. وغيرت وهى مثقلة بمشاعر الإحباط فستانها وضبطته على جسمها. "واضح أنه ليس من الممكن الإحساس بالرضا والنشاط عندما تزداد الأعباء أكثر من اللازم وتعرف الواحدة أنها ليست بالفعل امرأة بل شبحاً، وشبحاً سوف يقضى عليه واحدة واحدة بشكل بطيء..." والآن عليها أن تغطى فمها بالمنديل لتخفق انفجارها فى الانتحاب؛ لأنها فى الفترة الأخيرة تحس بأنها حساسة أكثر من اللازم وحزينة وما أسهل أن تنهار باكية.

حدث هذا فى أوائل الصيف. فى هذا الصيف الذى ما من نسمة طرية فيه، والخانق، والذى بدأت تحس فيه بأنها فى حالة سيئة. وأحياناً كانت تحس أول ما تستيقظ بنوبة شديدة من الغثيان، وأحياناً أخرى تحس بسخونة تصعد فى هبات إلى رأسها، أو

نوبات دوّار شديدة، كما لو أنّ الغرفة وقطع الأثاث تتحرك وهي تلف بها، ونوبات الدوار فى حالات عديدة تهاجمها طوال اليوم، أيضاً فقدت شهيتها للطعام، ولم تعد تشتهى شيئاً. وكل طعام أصبحت نفسها تعافه، وبحساباتها، فإنها قضت الأيام الماضية دون أن تأكل وعلى فنجان قهوة فقط أو كوب عصير كانت تمضى يومها. وتعب لا حدود له استولى عليها ولم يعد ممكناً بالنسبة لها أن تتجزّ ما عليها من أعباء يومية، وهي التى دائماً ما كانت تظل تشتغل فى البيت من الصباح حتى الليل، كامرأة زنجية. كل ما تقوم به الآن كان يتم بجهد شديد، جهد كل يوم يتزايد عما سبقه "حتى غطى العمر كله" هذا العمر الذى صارت كل النساء خائفات كثيراً منه والتى هى على وجه الخصوص ترى أنها بلغت نهايته، جذب، شيخوخة، سكوت، موت... الأيام تمر، وتوعك صحتها زاد إلى الحد، الذى جعلها تقرر الذهاب إلى الطبيب. ربما حدث لها شيء مع أقل ثقل تلك المرحلة الصعبة.

بعد أن قام الطبيب بالكشف عليها وفحصها بدقة، ربت على كتفها وهنأها... ستكون أمّاً من جديد... لم تصدق ما سمعته "لا أصدق أبداً، ولكن مع سنوات عمرى، فكرت بأنه كان... كما يقال ستكون هناك أعراض ل... لكن، كيف يكون ذلك ممكناً، يا دكتور؟" وكان عليها أن تسأله عدة مرات إن كان متأكداً من تشخيصه، إذ أنه من النادر أن يحدث ذلك فى عمرها هذا. "ذلك هو، يا ابنتى، لا أكثر، اتبعى

نصائحى وتعالى لأراكِ خلال شهر، لا يجب أن يكون
عندك خوف، لو اعتيت بنفسك، كل شىء سيتم بشكل
طيب. طبعاً سأراكِ، وأنا فى انتظارك خلال شهر.
كتبت لكِ رويشة ببعض الأدوية والتي لابد أن
تتناوليها. أما هى فخلال أيام وأيام، ولا تزال لعدة
ساعات قبلها، كانت تبكى فقط لتفكيرها بأنها وقد
بلغت ذلك العمر المزعج والذى فيه عاشت الأمومة،
والنضارة والنشاط انتهىا الآن، وعندما استقبلت
الخبر، لم تجرب أى إحساس بالفرح، بل على العكس
إحساس كبير بالارتباك وهمود شديد، لأنه عبء ثقيل،
بالطبع، أن تعود بعد سبع سنوات ويكون لديها طفل
آخر، عندما يكون لديها بالفعل ستة أبناء، فضلاً عن
أن الواحدة ليست فى سن العشرين، ولم تعمل حساباً
لمن ستعينها مقابل لا شىء، وعليها أن تقوم بشغل
البيت كله وتدبر احتياجاته بمصاريف شحيحة. وتكلفة
ذلك كله تتصاعد يوماً بعد يوم. وهكذا راحت تفكر
وهى راكبة فى سيارة النقل فى عودتها إلى البيت،
بينما كانت تتطلع إلى الشوارع، التى بدت لها مثيرة
للحزن مثل المساء، مثلها هى نفسها. لأنها بالفعل لا
تريد أن تعود لتبدأ مرة أخرى، زجاجات الرضعة، كل
ثلاث ساعات، وغسيل الأقمطة طوال اليوم وساعات
السهر، عندما تكون لا ترغب فى شىء بالفعل سوى
فى أن تنام، تنام، تنام طويلاً، لا. لا. هذا لا تستطيع
أن تكونه، فليس لديها القوة ولا الصبر لتقوم
برعاية طفل آخر. ويكفيها تماماً أن تصبر على ستة

أبناء وببى، شديد الجفاف، وشديد الاختلاف "لست
سخياً معك، يا ابنتى، لا أفقه شيئاً من الحياة، وليس
لدى طموحات والشئ الوحيد الذى أفعله سوف يكون
أن أملأ بطنك بالأبناء نعم، طفل آخر أكثر وهو لن
يبذل أقل جهد أكثر من ذلك للبحث عن عمل آخر
وكسب نقود أزيد والمهمة جداً بالنسبة لها والتي تعمل
معجزات فى تدبير إنفاقها أو أنها سوف تموت من
الإجهاد.

فى تلك الليلة أبلغته بالخبر، كان الأطفال قد
ناموا، وهما كانا فى الغرفة يتفرجان على التليفزيون
مثل كل الليالى بعد العشاء. مرر بببى ذراعه حول
كتفها وطس خدها بقبلة "كل طفل يأتى ومعه رزقه،
طعامه وملبسه. لا تشغلى نفسك، سنخرج من هذه
الزنقة مثلما نخرج دائماً". وهى ظلت شاخصة إلى
شاشة التليفزيون؛ حيث كان هناك شئ يتحرك دون
إحساس به، بينما كان هناك فى داخلها يتصارع عالم
من الأفكار والأحاسيس.

ومرت الأيام، والأسابيع، واستمرت دون صبرها
على المكروه، ولا الأمل. وجع يتزايد مع الأيام وشحوب
شديد أجبرها على أن ترقد، فى أوقات مختلفة، وفى
مرات كثيرة أثناء النهار. وهكذا قضت الصيف.

وفى الليالى، وقليلًا أثناء النوم كان بببى يسمعها
أو يحس بها ترتعش، لكنه بالكاد يقدر كونها لا تنام.
وكان طبيعياً أن بببى قد ارتاح من الهم، طبيعياً فهو لا
يدرك ما الذى يعنيه أن يخرج للنور ابن فوق الآخرين،

ولا كيف يعتنى به، "الأبناء جائزة، هبة" لكن عندما يكونان فى الخامسة والأربعين وعندهما ستة أطفال، فطفل آخر فوقهم ليس جائزة، وليس سوى عقوبة، لأنه بالفعل لا تتوفر من أجله لا الطاقة ولا الهمة لمواصلة المشوار.

أحياناً تنهض فى منتصف الليل وتجلس قرب النافذة، هناك فى الظلام، تسمع صوت الجنادب تحت فى الجنينة الصغيرة، حيث تجمع منها الخضراوات، ويفاجئها الفجر بالعينين المفتوحتين لا تزال واليدين المتشنجتين من الكرب.

وكان عليها أن تذهب إلى الطبيب فى نهاية الشهر، وبعد ذلك، تواصل. غير لها قليلاً من الأدوية التى وصفها لها، لكن على دائماً أن تتبع نصائحه نفسها. "حاولى ألا تتعبى نفسك كثيراً، يا ابنتى، استريحى أكثر، وهدئى نفسك". عادت إلى بيتها وهى تسير بتثاقل.

وفى واحدة من تلك الليالى والتى لم تذق فيها النوم والحر وضيق التنفس جعلها تنهض وتتمشى، وخرجت لتتهوى بهواء منعش وأمسكت بدرازين السلم الذى ينزل من الغرف إلى الجنينة الصغيرة. وصلت إليها رائحة الليل، التى ما أكثر ما كانت تحبها، لكنها الآن تبدو لها نفاذة بشدة، ونفسها تعافها، كانت ترقب بشكل مختلف اليراعات، التى تضىء فى الظلمة وتنطفئ وتتكاثر ليلاً بالتماعات صغيرة قليلة وقصيرة، عندما أحست بشيء ساخن وجيلاتينى بدأ

ينزلق جاريًا بين فخذيها . نظرت تحتها ورأت فوق الأرض غصن خشخاش منزوع الأوراق . وأحست بجبينها غارقًا في عرق بارد . وبساقها وقد أخذتا تتراخيان، وشدت قبضتها على درابزين السلم بينما انطلقت صارخة على زوجها . وببى نقلها إلى السرير وجرى ليستدعى الطبيب . "لقد نصحتك كثيرًا بألا تتعبى نفسك، يا ابنتى، وألا تجهدى نفسك كثيرًا" . قال الطبيب ذلك وعندما انتهى من تنبيهها وربت على كتفها بتربيتات خفيفة . "حاولى أن تنامى، غداً سأحضر لأراكِ" وقبل أن تسقط في النوم، طلبت من ببى أن يلف الدماء المتجلطة في أوراق جرائد وأن يدفنها في ركن من أركان الجنية الصغيرة، حتى لا يراها الأطفال .

كانت الشمس قد ملأت الغرفة عندما استيقظت، وكانت قد نامت ساعات طويلة . وأطفالها كانوا قد ذهبوا إلى المدرسة دون أن يثيروا ضجة، وببى أحضر لها فنجان قهوة باللبن ومعه خبز لتأكله باستمتاع . كانت جائعة، وعندما خرج ببى ليحضر بأخته لتلازمها بضعة أيام حتى تستعيد عافيتها، بقيت هي تفكر ولم تستطع على الأقل أن تجرب أعظم ارتياح من أنها قد خرجت من هذا الكابوس المرعب . ولقد تأملت طبعًا أنها تبدو بشكل محزن كثيرًا، شديدة الكدر، لكن الأمور لا تجري حسبما يشتهي البعض، ولا ما يفكر فيها، لكن حسبما تسير هي . وطبعًا هي لا تريد طفلًا آخر . لا، كانت قد

تفوقت على نفسها، لكن ليس هكذا، وألا يكون قد حدث هكذا. هكذا مما أثر فيها وحرك عواطفها. وأخذت تبيكى بلا عزاء، لفترة طويلة حتى ظلت مستغرقة مرة أخرى فى النوم.

وفى أيام قليلة عاد كل شىء إلى طبيعته، وقامت بواجباتها فى خدمة البيت، كما كانت تقوم بها دائماً، مراعية ألا تجهد نفسها أزيد من اللازم، عاملة على أن تظل مشغولة طوال اليوم، وهكذا فإنها لم يكن لديها الوقت بأن يأخذها التفكير وأن تعاودها نوبات اللوم. وجريت أن تنسى كل شىء، وألا تتذكر ذلك الصيف المريك، الذى فى آخر الأمر كان قد انتهى. والذى تقريباً كانت قد انتهت منه حتى كان ذلك اليوم الذى طلبت فيه من بيبيتو أن يجمع لها بعض حبات الطماطم. "لا يا ماما، لأن هناك أيضاً توجد ديدان".

بدأ الطنين يتصاعد فى أذنيها، وقطع الأثاث كلها والأشياء وأخذت تدور من حولها، وبدأ نظرها يغم وكان عليها أن تجلس حتى لا تقع من طولها. كانت غارقة فى العرق والقلق ينهش أحشاءها. بالتأكيد أن بيبي، البطيء الحركة كما هو دائماً، لم يحفر الأرض بشكل كافٍ، ومن هنا... لكن أى شىء مرعب، أى شىء مرعب، الديدان تخرج، تخرج،...

فى ذلك اليوم بصعوبة جهزت الطعام وقد انتهت منه أو كان مالحاً أو نصف نيئ، أو محترقاً إذ إنها بدأت تدور فى دوامة من الأفكار وتهالك مخيف.

كل حياتها، والروتين اليومي تغيرت بضربة واحدة، إذ أخذت تتجه إلى أن تكون عصبية جداً، فريسة لقلق فظيع، تفرش السرير بشكل سيئ، وتخبط الأرض بالمكنسة خبطات عديدة، تجرى وتطل من النوافذ المظلة على الجنينة الصغيرة، وبدأت تنفض الغبار من فوق قطع الأثاث، ومرة أخرى من على النافذة، ونسيت كل ما كانت عمله، وعند مسح الأرضية تترك بركاً. وبدأت توقع الأشياء من يديها، تحطم الأواني الخزفية، وتلتقط بسرعة الكسر وتلقى بها في إناء القمامة حتى لا يراها أحد ويشك فيها؛ تقضى ساعات طويلة متعلقة بالدرابزين، وهى تراقب، وتراقب.

بصعوبة تتكلم مع بيبي والأطفال الصغار، كل شيء يضايقها؛ ما يسألونها عنه، ما يتحدثون فيه، ما يثيرونه من ضوضاء، الراديو الذى يفتحونه، الألعاب التى يلعبونها، فرجتهم على التلفزيون... هى تريد أن تكون وحدها، تفكر، تراقب... ألا تتسلى، هى فى حاجة لأن تكون متنبهة، وهى تصفى، وهى تراقب، وهى تصفى، وهى تراقب.

فى هذه الليلة، ذهب بيبي إلى وسط البلدة كى يشتري حذاء/ أو إلى صالون الحلاقة. والأطفال الثلاثة الأصغر سناً ذهبوا للدرس الدينى ككل يوم سبت. والأطفال الأكبر للعب كرة السلة. فكانت فى وحدتها تحاول بلا جدوى أن ترفو الجوارب، وترقع القمصان والبنطلونات، الأمور التى كانت تجرى من قبل بمهارة وبسرعة بينما تتابع هى فى التلفزيون

مسلسل يوم الأحد البيع بسعر مخفض الذى كثيراً ما أحبته، وفوق كل شيء مسلسل حنين "... لكن ذلك لم يعد ممكناً بالفعل، وبالنسبة لها لم يعد يسليها شيء، ولا ما كانت تسمعه ولا ما تراقبه، كانت متنبهة، تراقب، وتنصت، وقرب الساعة السادسة مساءً، نجحت فى أن تحس بما يشبه احتكاك خفيف. شيء يتسحب فوق الأرضية بالكاد تلمسه. بقيت هادئة دون أن تتنفس،... نعم. ليس هناك أقل شك.. أولئك هم.. وهم يقتربون، يقتربون، يقتربون ببطء، كل مرة أكثر، كل مرة أكثر، وعيناها اكتشفتا ظلاً خفيفاً تحت عقب الباب... نعم، إنهم هنا. لقد وصلوا. لم يعد هناك وقت ليضيع أو ليكون للرافة. جرت إلى المائدة، التى كانت فوقها لمبة جاز من البورسلين القديم والتى كانت لوالدتها والتى احتفظت بها كشيء أثرى، وببيدين مرتعشتين عمدت إلى إفراغ محتويات الللمبة من الجاز وراحت تسكبه من فوق الرأس إلى القدمين حتى بقيت مبتلة به تماماً. وبعد ذلك، وبالفائض منه، رشت ما يحيط بها، ثم دائرة ضيقة حولها، ومع ذلك فقبل أن تشعل عود الثقاب، نجحت فى أن تراهم وهم يدخلون بصعوبة شديدة خلال فتحة ضيقة من الباب... لكنها كانت أسرع، وبهذا فقد كسبت المعركة، ولن يبقى لهم أثر. لتكون بذلك قد أكملت انتقامها إذ لم يبق سوى كومة من الرماد الذى يتصاعد منه الدخان.

أوسكار

أعطت الفتاة الإشارة للموظف وانتظرت بصبر أن يسلموها حقائب السفر. جلست على دكة ودخنت سيجارة، ربما هي الأخيرة التي راحت تدخنها خلال الفترة التي ستقضيها مع عائلتها. عيناها عاودتا النظر باهتمام الى المكان محاولة أن تكتشف إذا كان، في سنوات غيابها هذه؛ قد تغير شيء، لكن كل شيء ظل كما هو. وما تغير هي فقط ، تذكرت كما لو أنها ترتب الأمور منذ سفرها إلى العاصمة: الملابس الطويل الفضفاض، ووجهها المغسول وشعرها الملموم على هيئة ذيل حصان. والحداء الواطئ، وجوارب قطنيه. الآن هي ترتدى سويتير أسود جميلاً. وجونلة قصيرة وضيقة، ملتصقة بجسدها، وحداء أسود وبالطو بيع. واضعة مكياجاً غير فاضح وشعرها مموج على الموضه. كانت فتاة جذابة وجميلة، وهذا تعرفه هي، ومثلما يقال: نكشف الشخص بقدر ما يعرف كيف يلبس ويتأنق. والموظف حمل لها حقيبتها وقال لها:

- لو أحببت حضرتك، عربة البريد يمكن أن توصلك إلى البلدة، مقابل اثنين بيسو فقط، لأن عربة نقل الركاب تتأخر كثيراً في المرور هنا.

اتخذت الفتاة مقعدها بجوار السائق السمين لعربة البريد، وأعطته عنوان بيتها.

- في بيت "دون كارلوس رومان"؟ سأل السائق وهو يبتسم - لقد كنت أعزف معه في فرقة موسيقى البلدية أيام الأحاد، في المساء. وبعدها كنت أصحبه إلى بيته. لو سمحت لي أن أتوقف عند مكتب البريد لأترك لهم حقيبة الخطابات، ولن أتأخر.

ودخل الرجل إلى مكتب البريد بحقيبة الخطابات وكانت تقريباً فارغة.

أما هي فكان بإمكانها أن ترى من مكانها الأبرشية العتيقة للبلدة بأبراجها الرشيقة؛ وميدان الجيوش بكشك الموسيقى ودكة الحديدية، وبجوار الأبرشية، مكتب توثيق العقود، الذي يعمل به والدها. وبلاشك أنه منكب الآن على بعض أوراق المكتب يكتب بريشة مانجويو حروفه المتناسقة بالغة الجمال

دفعت الفتاة للسائق الاثنين بيسو المتفق عليها وبقيت للحظة، قبل أن تقرر أن تدق الباب، متأملة بيت موثق العقود، بيتها، وهي تراه من المدينة فيبدو صغيراً ومتواضعاً؛ لكن هنا هو بيت جميل إذ إنه من طابقين وبدروم، من نوعية نادرة في البلدة. النقاشة معمولة بطريقة غير جيدة، والشبابيك والباب لا لون لهم، ولا شك أن زمناً طويلاً قد مر دون أن يهتموا بالمنزل.

دقت الباب فى النهاية وانتظرت، بينما كانت دقات قلبها تتسارع.

- "مونيكا"! - صرخت كريستينا أول ما رأتها وضمتها بمودة شديدة، وخطوات الشخص الواصل تكون متباعدة، ومونيكا جرت لتعانق أمها، تلك المرأة الضئيلة النحيلة، بوجه لونه رمادى، وعينين غائرتين وبلا بريق. وهى تعانقها عملت مونيكا حسابها للنحافة البالغة للمرأة، والوجه شديد الذبول والمنهك، وضمتها برقة وألم.

- كم هو جميل أنك رجعت يا ابنتى! - قالت لها الأم، بينما كانت تمسح دمعته.

- وبابا؟ و"كارلوس"؟

- بابا فى مكتب التوثيق، و"كارلوس" يواصل عمله فى المدرسة، والآن جاءه إضافة إلى أطفاله، الطفل الخامس.

- و... أوسكار؟

- كما هو دائماً - قالت المرأة باختصار وتنهدت. ووجهها بدا فى تلك اللحظة رمادياً أكثر، وعينها غائرتين أكثر.

وعند دخولها غرفة النوم التى كانت تتشارك فيها هى و"كريستينا"، خلال سنوات طويلة، أحست "مونيكا" بتأنيب الضمير وألم؛ لأنها تركت أختها يصيبها الضنا غارقة فى هذا الحبس، ولم تأخذها معها عندما كانت ذاهبة إلى العاصمة. والغرفة كانت مقسمة بالتساوى: السريران من النحاس الأصفر،

بمفرشييهما المنسوجين من غزل أبيض، ناصعان، ومنبسطان، كما لو كانا مفروشين للتو ودولاب الملابس العتيق من خشب عين العصفور الذى ورثوه عن الجدة، والتسريحة بأرضيتها الرخام، وحوض غسيل الأيدي، الأبريق من البورسلين. والمكتب بشمعدانه الذهبى وشمعته الطويلة والجاهزة لتكون مشتعلة، والزهرية بأزهار الياسمين التى قطفتها "كريستينا" لتكون فى استقبالها عارفة كم تحب هى عطرها.

- "كريستينا"، يا أختى، كم أنا مستغربة لك، لا تعرفين إلى أى مدى - وكانت "مونيكا" صريحة.

فى هذه اللحظة عرفت بوضوح، أن كريستينا كانت مندهشة أكثر من أى شخص آخر، العائلة، البيت، البلدة، كل شىء. كانت "كريستينا" فارعة الطول، شاحبة، هادئة دائماً، مجتهدة فى شغل البيت وتعانى، ومستسلمة لقدرها.

- وأنا، لا يمكنك أن تتصورى، كم! - واختنقت عيناها بالدموع - وما كان يعزىنى فقط أننى كنت أفكر بأنك سوف تعودين، لكن هل عدت لتبقى؟ ألم تعودى لتذهبى؟

- سوف نتكلم فى هذا يا "كريستينا".

- عندك حق. أنا ذاهبة لأساعد ماما فى تجهيز الأكل، استريحى قليلاً، فأنا أراك مجهدة.

و"مونيكا" نظرت لنفسها فى مرآة حوض غسيل الوجه، عندها حق "كريستينا"، رأت نفسها مجهدة،

وهذا ما كانته. الخوف من مواجهة العائلة بكل شيء، لقد كانت تحت ضغط عصبى شديد، لكنها كانت بالتحديد تقوم بهذه المجازفة، لأنها كانت فى حاجة إلى النتيجة، وأن تقترب منهم. وبدأت تخرج ملابسها من الحقيبتين، وتعلق فساتينها فى الدولاب العتيق، إلى جوار فساتين "كريستينا"، قطع الملابس تلك المعلقة، بعضها بجوار البعض، تتحدث بصراحة عن النساء اللاتي تلبسها والبيئة التي يتحركن فيها.

وفى الثانية بعد الظهر وصل الأب والأخ. والاستقبال كان قصيراً، وبارداً، و"مونيكا" لم تكن تتوقع شيئاً مختلفاً، وعلى الفور بعدما غسلوا أيديهم جلسوا حول المائدة وصلى الأب صلاة قصيرة، كما اعتاد أن يفعل، وبدءوا فى تناول الطعام. أى طعام جميل بالنسبة لـ "مونيكا" كان طعام بيتها الذى أعد باهتمام بالغ، وعناية خاصة من أمها.

ولقد تحدثوا قليلاً أثناء تناول الطعام. الأب كان مستاءً وتناوله بمزاج سيئ. و"مونيكا" لاحظته، بطرف عينها، وفى الحقيقة تقريباً لم يكن قد تغير. ربما صار أكثر سمنة وصلعاً. لكنه استمر فى هدوئه وسلوكه المنظم، بطيبة وترتيب، بفوطته الموضوعة حول رقبتة طوال احتسائه للشوربة، مثلما كان يفعل دائماً، وعلى الطرف الآخر من رأس المائدة، الأم تقوم على خدمتهم أثناء تناول طعامهم فى صمت. "أنها لم تتغير." - قالت عنها "مونيكا" "لقد انهكت تماماً." شديدة النحول، بهزال وجهها الرمادى، وعينيها

الغائرتين اللتين لا بريق فيهما. وتبدو شبحاً أكثر منها إنسانة. و"كريستينا" غارقة فى صمتها، ووحدها وانعدام أملها، فهى شابة عجوز. زهرة ذابلة. و"كارلوس"، غارق فى تفكيره، مقفول على نفسه، يبدو أكثر ضخامة، ويبدو أكثر سناً من عمره الذى بلغه. أحست "مونيكا" برقة بالغة وألم شديد حيالهم كلهم وأحبت أيضاً كونها عائدة. جلبة، كما لو من أمتعة تقع على الأرض، جعلت "مونيكا" ترتجف وبقيبتهم نظروا إلى بعضهم دون اندهاش.

- لا بد وأن يكون قد انتهى من طعامه الآن -
قالت ذلك الأم وهى تنهض من على المائدة. وخرجت مسرعة واختفت من الباب المؤدى إلى البدروم. وخلال عدة دقائق عادت وهى تحمل صينية عليها قطع من حطام الأطباق والأكواب، وكانت تلهث إلى حد ما وقد اكتسى وجهها بلون خفيف.

- إنه عصبى جداً، واعتقد أنه بسبب... -
وتركزت عيناها على "مونيكا" - لا بد أن تعطيه شيئاً،
يا بابا.

- وانتهى الأب من تناول طعامه بسرعة، ومسح فمه بالفوطة. وصب قليلاً من الماء فى كوب واتجه إلى البدروم. والأخ نهض من على المائدة ممسكاً ببعض الكتب وانصرف.

وفى اليوم التالى لوصول "مونيكا"، شرعت فى عمل الجانب الذى يخصها من شغل البيت، مثلما كانت تفعل قبل أن تسافر إلى العاصمة. بالروتين

نفسه دائماً: فى السادسة والنصف كانوا يستيقظون.
الأم تقدم الأكل للعصافير وتنظف الأقباض. وعلى
الأختين وضع مائدة الطعام، وإعداد الإفطار. وفى
الساعة الثامنة كان عليهم كلهم الجلوس حول المائدة،
لكن قبل ذلك لابد من تقديم الإفطار "لأوسكار" وإلا
يقضى اليوم بحالة بالغة السوء لو لم ينتبهوا ويقدموا
له طعامه أولاً وهو من البدروم وبذكائه البالغ يعرف
من الجلبة التى تحدث فى البيت متى يستيقظون، متى
يدخلون إلى المطبخ، ومتى يخرجون. كل شيء. ففى
الثامنة والنصف يذهب "كارلوس" إلى المدرسة والأب
بعده بقليل يذهب إلى مكتب توثيق العقود. وعندئذ
تنظف النسوة الثلاثة البيت بعناية. وعلى "كريستينا"
تحمل عبء ترتيب المطبخ غسل البلاط، والأم عليها
تنفيذ الصالة وغرفة مائدة الطعام، و"مونيكا" عليها
الغرف كلها والحمام، وخلال الوقت الذى تخرج فيه
الأم إلى السوق لشراء ما يحتاجونه من أجل أكلهم،
تكون البنات قد كنسن ومسحن الفناء، والطريقة. بعد
ذلك عندما عادت المرأة بما كلفت بإحضاره، عاونتها
"كريستينا" فى إعداد الطعام وترتيب المائدة. و"مونيكا"
غسلت الملابس المتسخة، ففى هذا البيت هناك دائماً
شيء يتم عمله. وبعد الانتهاء من تناول الطعام ترفع
المائدة وأدوات المطبخ، ويقمن برف الملابس وكيها،
يحدث ذلك فقط بعد العشاء عندما يكون الكل قد
عاد إلى البيت واستراح، والأب انخرط فى مراجعة
العزف على التشيللو للقطع التى يعزفونها من.
سيريناد أيام الأحد، والأخ يجرى يصحح أعمال

تلاميذه، أما النسوة الثلاث فتشغلن بأعمال الخياطة والتطريز.

ومن البدروم يتحكم "أوسكار" فى حياة هؤلاء الناس. هكذا كانت الأمور دائماً، وهكذا استمرت تدار. كان يأكل أولاً قبل أى إنسان، ولا يسمح لأحد بأن يذوق الطعام قبله. هذا ما يعرفه الجميع. وهذا ما يراه الجميع. كان يحرك الباب الحديدى للبدروم بغضب شديد، ويصرخ عندما لا يرى الشيء الذى يطلبه، وفى عز الليالى يثير ضجيجاً ويوجه لهم اعتراضاته عندما يريدون أن يناموا وفى أحيان كثيرة أيضاً ساعة أن يستيقظ. يأكل كثيراً، وبشراهة وبدون رغبة. بيديه بجلافة، ولأتفه سبب لا يريحه يطوح بالأطباق كلها وبها الطعام، ويخبط رأسه بالحيطان، ويراقب الباب. وفى أحيان نادرة كان يبدو صامتاً، إذ كان دائماً يكلم نفسه من بين أسنانه بكلمات غير مفهومة.

وعندما يكون الجميع كل منفردين بنفسه فى غرفته، يخرج "أوسكار" من البدروم. ويخرج الماء من البئر ويسقى قصارى الزرع بعناية ولو كان غاضباً، عندئذ يحطمها كلها على الأرض، لكنه فى اليوم التالى كان يعيد القصارى المحطمة كلها إلى مكانها، إذ أنه لا يتحمل أن تنقص. ودائماً كان يجعل قصارى الزرع بالعدد نفسه. وعندما ينتهى من رى القصارى يدخل البيت، ويصعد السلم المؤدى إلى الفرف. ونحو منتصف الليل تسمع طقطقة الخشب القديم تحت

الثقل المرعب لخطوات "أوسكار". كان أحياناً يفتح باب إحدى غرف النوم، وحالما يظهر نفسه فقط، يعود ويفلق الباب، ويرجع إلى البدروم. لكن فى أحيان أخرى يدخل كل الغرف ويقترب من الأسرة وهناك يبقى لبرهة، بلا حركة، ويلاحظ، فقط تنفسه الثقيل والقوى يكسر سكون الليل. لا أحد يمكن أن يتحرك حينئذ، كلهم يبدو متصلبين، ومشلولين أمام ظهوره. إذ أنهم مع "أوسكار" لا أحد يعرف مطلقاً ما الذى يمكن أن يحدث. بعد ذلك، وفى صمت، يخرج من الغرفة، وينزل على السلم بثقله ويدخل البدروم لينام. فى ذلك البيت لم يكن يسمح لأحد أن ينام مرتاحاً أو بشكل طبيعى، أبداً كان نومه خفيفاً، ومنتبهاً دائماً عند أقل جلبة. لكن لا أحد اشتكى أبداً. مستسلمين أمام هذا المرض العضال، متقبلين قدره القاسى، كانوا يتحملونه فى صمت. وفى ليالى اكتمال القمر بدرأ، يعوى "أوسكار" مثل ذئب طوال الوقت الذى يكون فيه القمر بدرأ ويمتتع عن الطعام.

من الممكن أن يقال إن عائلة "رومان" كانت واحدة من تلك العائلات المرتاحة أكثر فى البلدة، إذ يملكون بيتاً كبيراً وخاصاً بهم وحدهم، مكتباً لتوثيق العقود. وابننا مدرساً فى المدرسة، ومع ذلك، فهم بالكاد يحصلون على الأموال التى تسدد نفقات ذلك البيت. ويقال إن أكثر النفقات بسبب أوسكار بإحلال قصارى الزرع محل تلك التى يحطمها مراراً وتكراراً بلا توقف. خمسة. عشرة. فضلاً عما يقال عن الآنية

الخزفية، بشكل متواصل فيشترون أطباقاً، و فناجين، وأكواباً، علاوة على الملابس التى يمزقها حتى يحولها إلى خرق؛ قمصاناً، بنطلونات، ملائات، مفارش سرير، أغطية؛ وأيضاً يحطم كراسى وقطع أثاث، ويضاف إلى هذا كله، الأدوية التى يلحون عليه فى تناولها، والتى هى غالية إلى حد كبير.

كانت الزيارات التى يستقبلها بيت موثق العقود محدودة، عائلات وحيدة فقط أو أصدقاء حميميون يعرف "أوسكار" أصواتهم جيداً، من الصغر، والذين كان يحييهم بحرارة من وقت إلى آخر ويتناول الشيكولاتة معهم ويتبادلون الحديث لوقت قصير عند حلول المساء، شخصية غير معروفة لا تستطيع أبداً أن تدخل هذا البيت، و"أوسكار" لا يحتملها ولا يتسامح معها. والنسوة فقط هن من يخرجن للضرورة:

مشوار مكلفات به، من أجل المشتريات المختلفة، وقداس أيام الأحاد. ومرة خلال الأسبوع لصلاة التسابيح. مناسبة عزاء أو جنازة، أمر فى الحقيقة شديد الخصوصية، إذ إن هذه الأمور كثيرة للغاية، فهو لا يسمح لشيء بأن يكسر أو يؤخر سلوكه الروتينى اليومى لحياته وعاداته. وعندما تخرجن يبقى الأب أو الأخ فى البيت لأن "أوسكار" يخاف من الوحدة بدرجة لا يمكن تصورها وتشيره وعلاوة على ذلك، فهناك خطر موجود وهو أن يهرب.

فقدت "مونيكا" عادة أن تنام مبكراً وتمر عليها ساعات طويلة متيقظة، وهى مصغية للتنفس الخافت

لـ"كرستينا"، وتفكر فى أمور كثيرة، كثيرة، حتى تسمع الخطوات الصماء "لأوسكار"، وعندئذ تبقى "مونيكا" شديدة الهدوء وتغمض عينيها ليعتقد هو أنها قد نامت. و"أوسكار" يبقى واقفاً بجوار سريرها لعدة دقائق، تبدو لـ"مونيكا" لا نهاية لها، أبدية. كان يقضى الليالى كلها وهو يراقبها، ربما مستغرباً أن يراها من جديد هنا، أو يحب أن يتأكد إذ ما كانت هى. السنوات التى عاشتها فى المدينة كانت قد أنستها هذا الكابوس الذى لم تكن له نهاية أبداً.

فى ذلك اليوم، السادس من أغسطس، كان "أوسكار" فى حالة من فقدان الصبر منذ طلوع النهار. واحداً من الأدوية التى يتناولها، والتى تهدئه وجدها قد نفدت، والطبيب وصف له دواءً آخر ليحل محله، حتى لا يزيد تأثيره عليه. وخلال ساعات صار يصرخ، ويعوى، وينخرط فى الصراخ، محطماً كل ما يجده فى متناول يديه فى البدروم، مقلقاً بعنف الباب الحديدى المقفول بقفل، مطوحاً قطع الأثاث وقاذفاً بها البوابة. وكان قد طوح بصينية الإفطار، بما عليها من طعام، لم يسمع ولم يعمل اعتباراً لأحد "إن "أوسكار" فى أسوأ أحواله." قالت الأم أول ما وصل لتناول الطعام لزوجها وابنها. "أنا لا أعرف ماذا علينا أن نفعل." واصلت المرأة الحديث، وهى تعتصر يديها مختنقة من الضيق. "إنه يرفض تناول الطعام، وقد حطم كل شئ."

ودون أن تقال كلمة أزيد، جلسوا حول المائدة وسط تلك الضجة والصرخات، وأصوات العويل

والضحكات الصارخة. جلسوا خائري القوى بسبب هذا العذاب، الذى يثقل على الروح، وبأصابعها أخذت الأم تمسح الدموع التى لم تستطع أن تسيطر عليها. ولا حتى أن تسمع الأب وهو يشرب الشورية بصوت عال كماداته.

- لقد رفض أن يذوق لقمة، لم يحب أن يفطر ولا أن يأكل - عاودت الأم الكلام، كما لو أنها لم يسبق لها أن علقت عندما جاء؛ موثق العقود، وابنها.

- لقد حطم كل ما استطاع أن يحطمه - علقت "كريستينا".

- أعتقد أنه سيكون من المناسب أن ننبه الدكتور للحالة التى وجدت عنده - قال "كارلوس".

الضيق نجح فى أن يكسر الصمت، الذى كان الأب قد فرضه فى أوقات الفداء، خلال سنوات عديدة.

- ولو من باب الاحتياط، نزيد جرعة الدواء.

- لكن... الأفضل له...

- ماذا أفعل يا "ربى"، ماذا أفعل!.

- أعتقد أن هذا من تأثير القمر.

- أو من تأثير الحر الشديد.

- "ربنا" وحده من يعلم، "ربنا" وحده من يعلم!.

- هذه هى الأسوأ من بين النوبات.

- عيناه محمرتان وتكادان أن تخرجا.

- لقد خبط رأسه كثيراً ونزف دمًا .

- لقد حاول أن يفتح القفل .

- أنا أعتقد أن الدواء هو الذى جعله بهذا الشكل .

- أحيانًا لا يعرف الأطباء حتى ما يكتبونه فى الروشتة .

- لقد كان هادئًا جدًا، وفى أحسن حال .

- بالأمس، كان يغنى، الأغنية نفسها، طوال النهار، وطوال الليل، لكنه كان يغنى .

- نعم، لكن فى الليل حطم قصارى الزرع

- آه يا "ربى"، يا "ربى" ! .

- أحيانًا الأحاديث الفارغة تسرق الوقت والمال

- قاطع الأب حديثهم - أعتقد أن الأحسن أن نعطيه حقنة لكى ينام، إن شاء "الله" وعندما يصحو ستكون النوبة قد مرت. أنا ذاهب لتحضير "السرنجة" ونهض من على المائدة .

- أنا خائفة يا بابا - قالت الأم واقتربت من

زوجها وأخذته من ذراعه - خائفة بشدة .

- لقد حقنته فى أحوال كثيرة أخرى، ولم يحدث

شيء، اطمئنى، واهدئى .

- الفنانوس جاهز - قال "كارلوس" . والرجلان

الاثنان نزلا إلى البديروم . والنسوة بقين هناك، لا تتحركن، وقد تحولن إلى ما يشبه ثلاثة تماثيل .

تعالى صرخات غير واضحة الألفاظ، ضجة صادرة عن صراع، وعن أصوات الضربات، وعن الأجسام التى وقعت، أنات، صيحات... وفجأة توقف ذلك كله. فقط سمعن الأنفاس اللاهثة للرجلين الاثنتين، اللذين استحما فى عرقهما وهما خارجان من البدروم، منهكين ومثخنين بالجراح كما لو كانا يصارعان حيواناً مفترساً.

ذلك المجهود الهائل الزائد عن الحد من القلب المتعب لموثق العقود، والذي توقف فجأة، فى اليوم التالى، عندما وجدوه ينسخ عقداً فى أحد المحاضر. كان بالفعل ميتاً عندما نقلوه إلى بيته. وسهروا عليه ليلة الجنازة فى الصالة طوال الليل. وبالرغم من أنه كان رجلاً محبوباً ويلقى الاحترام من الجميع فى البلده، فإنه لم يستطع حضور السهرة على الميت سوى عائلات قليلة فقط، وأصدقاء يترددون على عائلة "رومان"، وأصواتهم عرفها "أوسكار". ألم العائلة كان هائلاً، وممزقون من الألم بقوا طوال الوقت بجانب ميتهم ليكون فى صمت. وفى اليوم التالى كان الدفن بعد أن أقاموا القداس على روح الجسد المسيحى. وفى الأبرشية والمقابر حضرت البلدة كلها. وزملاؤه فى فرقة موسيقى البلدية ودعوه وهم يعزفون له فالساته المحببة له:

أموت من حبك، والحدائق الحزينة.

ومنذ ذلك اليوم الذى مات فيه "دون كارلوس رامون" ساءت حياة هؤلاء الناس: البيت بشرائط

الكريب السوداء على الباب وعلى النوافذ. والنوافذ مقفلة، والنسوة يلبسن ملابس الحداد، صامتات فى غيبوبة أو ساهيات عما حولهن، وخصوصاً الأم التى كانت تبدو شبحاً أكثر من كونها إنسانة، شخصاً خيالياً أو شبحاً لجسم آخر، و"كارلوس" برأسه الساقط نحو الأرض يموت من الكرب ومن المعاناة، يعرف أنه سائر فى حارة مسدودة بلا مخرج. محاصر دون أى منفذ للخلاص ولا أمل فى هذه المحنة، كم تعذبوا وقاسوا وجرفهم الحزن عبر حياتهم. لقد وقع المقدور وهم ضحاياهم وفرائسهم وما من خلاص.

وفى الأسبوع الذى مات فيه موثق العقود، سقطت الأم مريضة. فى يوم لم تنم فيه تلك المرأة التى كانت منهكة تماماً. ولا الدكتور استطاع أن يدخل البيت، إذ لم يسمح له "أوسكار" بذلك، فكان "كارلوس" يخبره بحالتها يومياً، كما لو كان يقابل أمه، ويشترى لها الأدوية التى يأمر بها. لكن كل هذه الجهود لم تكن مجدية، فتلك الحياة كانت تنطفئ بشكل بطيء، دون أية شكوى، ولا نحيب، ويمر اليوم كله غارقة فى سبات عميق، دون أن تصدر عنها حركة ودون أن تتكلم، كانت تتلاشى.

ولأيام قليلة ظلت فيها الأم على قيد الحياة، تتنفس فقط ولا شئ أكثر، لا حشرجات، ولا اختلاجات، ولا ارتعاشات، ولا صرخات من ألم، لا شئ، تتنفس فقط، ومضت لتلحق بالرفيق الذى شاركته الحياة والتعاسة، وكانت السهرة على الميثة فى

المكان نفسه، الذى أقيمت فيه السهرة على "دون كارلوس"، ودفنت أيضاً إلى جواره، وفى تلك الليلة التى دفنت فيها، مر "أوسكار" على غرفة نومها الخالية وهو يعوى وأسنانه ينبعث من بينها الصرير.

استمروا فى قضاء ذلك الصيف المشرق والمعطر بروائح الزهور، لأيام طويلة، وليال لا نهاية لها، الأخوة الثلاثة، مغلقون داخل أنفسهم، دون أن يجرءوا على التحدث، ولا على التواصل، كما لو كانوا فى غيبوبة، وغارقين فيها بعمق كما لو أنهم مفكرون والكلمات: مستغربة أو كما لو كانوا ينتزعونها لتخرج. وكل يوم أحد، وبعد حضور القداس، تذهب "كريستينا" و"مونيكا" إلى المقابر ليحملن الزهور إلى أحبائهن الموتى. "كارلوس" يبقى فى البيت ليرعى "أوسكار". وفى المساء تجلس الأختان لتتسغلا بشغل الإبرة بجوار النافذة فى الصالة. ومن هناك يرقبن الحياة وهى تمضى، مثل السجينات عبر قضبان زنزانتهن. أما "كارلوس" فيتظاهر بأنه يقرأ، ويتأرجح على الكرسي القش الهزاز. حيث كان أبوه ينام فى قيلولات قصيرة قبل أن يذهب ليعزف سيرنادات فى ميدان الجيوش.

هائلا كان يرى القمر تلك الليلة التى اكتمل فيها وصار بدرًا فى أغسطس، وكان الحر فيها شديداً طوال النهار واستمر طوال الليل، وبالكاد يستطيع الواحد تحمل ملاءة على جسمه. و"أوسكار" أخذ فى العواء كما يفعل دائماً فى ليالى البدر. وما من أحد

استطاع أن يذوق النوم، يعوى ويكسر قصارى الزرع، يصعد وينزل السلالم، كان يصيح، ويعوى، ويصرخ، يصعد وينزل... ومختنقين بالحر الذى ظل يتزايد حتى تركوا أنفسهم وقد اشتد بهم النعاس شيئاً فشيئاً، يسقطون فى نوم أحمر، محترق، كما لو كانت نار حارقة قد اندلعت، وطوقتهم، حتى انتهت بهم إلى الكحة، كحة جافة، وملحة حتى أنهم استيقظوا، وبعيون خرجت من محاجرهما أخذوا يحدقون فى السنة اللهب، التى وصلت بالفعل إلى الغرف صاعدة من الطابق السفلى، والدخان الكثيف والخانق الذى جعلهم يكحون، وتدمع عيونهم، ويكحون، وعواء "أوسكار"، الذى كان بلا شك تحت، فى البدروم، عواء وضحكات عالية، ضحكات لمجنون لم يسمعوها قبل ذلك أبداً، واللهب يدخل، وتقريباً لحقت بهم، لم يكن ممكننا أن يضيعوا الوقت، والسلم كانت النار، قد التهمت، وبقيت فقط النوافذ، ربطوا أطراف الملاءات ببعضها، و"كارلوس" أنزل "كريستينا"، وبعد ذلك "مونيكا"، وفى النهاية تدلى هو، وعندما كان "كارلوس" يلمس الأرض، كان البيت قد اجتاحته كله النار التى خرجت ألسنتها من النوافذ، ومن الباب، ومن كل جوانبه. ومازالوا يسمعون الضحكات التى يطلقها "أوسكار" عندها أمسك الثلاثة بأيدي بعضهم، وشرعوا فى السير باتجاه الخروج من البلدة. وما من أحد أدار رأسه ليرى للمرة الأخيرة البيت المشتعل.

الرسالة

أنا أكلملك...عن تلك الأيام التى فيها يختار الإنسان طريقاً فى بلد لا يعرفه ويستسلم للمناخوليا والوحدة: وعن تلك الصباحات التى تكون فيها العيون مرتابة وغير مرتاحة. عن تلك اللحظات التى أحب فيها أن أكون مأخوذة بجانبك، بينما تؤدبنى بنظام يبعدك عنى، من القلاع التى أبنيتها من الرمال والتى تتهدم من هبة هواء خفيفة من الوردة التى أعطيها لك، ذابلة إلى حد ما. من المؤكد وأنتك تركتها تموت فى زهرية بدون ماء. من الكلمات التى لم تقلها أبداً، بل أقرؤها فى عينيك الصريحتين. اليوم أكلملك. اليوم الذى أملك فيه الوقت كله لكى أقوم به وليسست تلك المقابلات الصحفية، التى تسمح لى فيها فقط بكلام كثيرولا تسمح بشيء منه. وأبقى مخنوقة بالكلمات والأفكار والمشاعر. من كل ما لا أعرفه ولا أستطيع التعبير عنه أبداً. أنا أعرف أن كل لحظة لا تعوض ولا أحب أن أفقد لحظة واحدة من التى أكون فيها

بجوارك.. لكن أنت تركتها تضيع، كما تركتها تمضى
السنون، أو الحياة. ربما الآن تستطيع أن تقول شيئاً،
أو خلال شهر، أو خلال قرن، أو خلال لحظة. ما
أهمية الزمن الذى يمر لو صار فى النهاية مثل خط
متفق عليه لترتيب الوجود اليومى. حدد مكانه فى
الماضى أو فى المستقبل. ربما فى يوم ما، على الأقل ما
فكرت فيه، يوم تعطيه السحب الرمادية، أو يوم
ممطر، تستطيع أن تحكى فيه حكايتنا بشكل جيد،
لأنك لم تتركنى أبداً أتكلم عن حقيقة لقائنا. عندك
خوف ولذلك لا تستمع لى... أو أنك تتعمد التجاهل،
أتوافقنى فى رأى؟ كل مرة أبداً فيها بالكلام عن
أماكن، أشخاص، أفراح أو أحزان، عن أشياء كثيرة
مشتركة أول مرة تحدث فيها القطيعة بيننا، كانت مثل
جسر أمدته فى الفراغ وأنت لا تريد. أنت ترفض أن
تعبره، ولذلك لا تتذكر وتفهمنى أفضل، وتفهم، أنت
أحسن ما تعرفه، هو ما عمق الهوة، وصل إلى أن
أصاب الروح، بل وصل هناك نهر من الخوف، أو أيضاً
أشكال مختلفة من الحب أو من الخوف. ومن الحب
اختفت أشياء كثيرة كما لو بفعل كارثة أو بفعل إعصار
هائل. أنا لم أهرب أبداً من الحب، وذلك أنت تعرفه.
أنا أتهاوى دائماً بلا تبصر فى مياهاك. واستنفذه
بعطش لا يرتوى أبداً: باحثة عن جنتى. وفى هذا
الإلحاح/ الرهان/ استنزفت الحياة. البروق تمزق
السماء وتمحو زرققتها، منذرة بالعواصف... هكذا
تعزف روحى، خيالى دائماً منشغل. وضوح الكلام مرة
فيضح/ يتسرب إلى حياتى فى لحظات فقط فى أمل

كاذب، لتسقط بعد ذلك فى ظلمة أكثر حلكة، فى فراغ
بلا نهاية، فى بئر لا قاع لها. معك فقط أستطيع أن
أتكلم هكذا: أسمى الأشياء بأسمائها، وأقولها: ليل،
زهرة، مطر. أسميها، مثلما تكون هى أو كانت. مرات
عديدة، أحكى لك وأرتفع إلى عتبات الحديث، لكن
بعد ذلك يصل/ يأتى النور، والغموض كله يتلاشى كل
شئ يستعيد شكله الحقيقى، تمامًا. وعندئذ أرحل
الى اليوم الحقيقى الذى لا ينتهى، لا أعرف بشكل
كاف أن الحب وجد، وهو موجود وأحسه فى قلبى
وفى خلاياى كلها. أعرف كيف أمنحه كله بيدين
ممتلئتين، لكنى أتلقى شيئاً مغايراً، رسالة من الروح،
زيت أم حطب للوقود، ليغذى النار. لم تعرف أبداً عن
هذا الحب، مستلقياً على بطنك فوق جمراتك
الخاصة، ولا حتى فى تلك الليلة، التى مشيت فيها
ساخطاً دون أن تقول ولا كلمة وداع ولا مكثراً
لخطواتى الثقيلة الصماء. وفى الدموع التى انهالت
بداخلى. كل شئ بدأ يتساوى فى الطريق وفى
داخلك. الضوء الشاحب، الأوتومبيلات السريعة. المارة
والجرائد تحت الذراع والسيجارة وقد احترقت/
استنفدت كلها بين الشفتين، كل شئ يتساوى، أيضاً
المطر بتساقطه فى رتابة ربما كنت تفكر "الآن على" أن
أذهب لأجلس وأتفرج على التليفزيون أو أسمع
الراديو، وسوف تأخذ قهوة وتدخن سيجارتك الطويلة
لكن لا. كل شئ يتساوى خارجك وداخلك. لكن خلف
الباب الذى أغلقته، بقى هذا الحب الذى لا تفهمه

والذى بقى يخلق صوت خطواتك على السلم، جرس
التليفون، وفى حالات غيابك أركن إلى الصمت
منتظرة، أفتش عن شكل لميزة فيه، مع ذلك، فأنا
أعترف لك، أنا لا أنتظر المرور المتشابه للأيام، دون أن
يظهر لا خلاص ولا أمل. اقترحت على نفسى عندئذ
أن أنسى الساعات، والأشياء التى تحيط بى، وكلها
يقلقنى، وفقدت نفسى، مثلما فى غابة، فى قراءة ما.
آه لو تعرف، كم من الليالى تخيلت أن نبليغ الفجر معاً،
إلى أرض معروفة لنا حيث السلام/ السكينة
تحتضنا/ نحفظ بسلامنا. وجدت أحياناً فيما أحب
أن يجمعنا الفرح أو الحزن اللذين تمنحهما لى، لكنى
أحتفظ بهما دائماً بداخلى بخوف أن تفسد، وكلها لن
تكون ممثلة بوفرة هائلة. وعندما ألقاك أقطع
الخيوط مع ماضى، من كل ما يصلنى بك وأقيس
خطواتى بخطواتك. إلى حيث تحب أنت. لم أحدثك
أبداً عن أوقات الشفق/ الفسق الواهنة فى الشجرة
الضخمة، التى كانت أمام نافذتى. والتى أهرب من
خلالها دائماً وتأخذنى/ تصحبنى لصحبتك لمعرفة
الأماكن والمواضع المحببة: حدائق وبساتين، حجرات
مليئة بأشياء قديمة، لعب عزيزة على محطمة، صور
للعائلة، ولكلاب، ولقطط لا يمكن أن تنسى. أيقونات،
كهوف، وطرق تحفها على الجانبين أشجار الحور
الظليلة، والمنتزه الغاطس مع غديره، غاطس أكثر الآن
عن المنتزه القديم نفسه، قاعه صار مغطى بكثافة
بالوحل والطحالب، أعشاب مائية، وشقوق خفية حيث

تختفى الأسماك، أسماك ملونة تلمع وتبرق كما لو أنها من الذهب أو الفضة، عندما يسقط عليها نور الشمس، هناك كنت أتنزه أنا وقت العصر فى طفولتى، وكنت أنصرف من هناك فقط، عندما لا أعود أرى الأسماك فى المياه الهائجة والريح التى تهب بقوة. وطوال حياتى كنت أتمشى على الشواطئ أسمع صوت البحر، وأتعرف على أعالى الجبال والوديان الفسيحة. الأمسيات البنفسجية وسماوات الخريف الذهبية. أتمشى دائماً فى وحدتى دون صحبة أكثر من أن أمل فيها/ أنتظرها... انتظرت سنوات عديدة كالقرون، وفقط بقيت يداى خاويتين والقلب مجروح من البرد، لكل ذلك، أتكلم فقط إليك لكى أشير لك إلى الطعم المرير للحياة ونبحث عن الجمال فى كل ما يحيط بنا، ولا أرغب سوى فيما يوهب لنا ونجده فيه، الرضا الكامل: فى الانفصال عن كل لحظة، واستعادة لذتها البعيدة. وأتخلص من ألم الهجر وأواصل الحياة كنحلة تنتقل من زهرة لأخرى. أكلمك من أجل هذا كله وأكثر منه. من أجلك كى أفتح لك نوافذ مغلقة ومن اليد التى تساعدك على أن تجتاز عبر الموقف الأكثر مرارة وإيلاماً، لماذا، قل لى الآن، هل تغيرت كثيراً؟ تصرفك فتح منافذ/ سبل/ طرق طويلة للشكوك والمخاوف. لقد سألت، ومازلت أسأل، لماذا لم تعرفه أبداً بشكل مؤكد. لو أنه كان فقط موقفاً. أو أن هناك مرحلة أفضل، فى حياتك أو أساساً يسند ويقوى وهو نفسه ما أكلمك عنه الآن. أريد أن أقول

لك أشياء أكثر، وهى كلها الأشياء التى سكت عنها يوماً بعد يوم، وأعرف عنك أشياء أخرى، وأخرى كثيرة، الأشياء التى أحتاج أن أوضح بها شكوكى وهذا الارتباب الذى دائماً ما أغرق فيه. أكلمك، أكلمك، لكنك لا تسمعنى. تنظر خلال النافذة انحدار الشمس فى الغروب، وتشهد الأشجار والبنىات العالية، وتظل غائباً، فيم تفكر؟ أنا عرفتته فى مرات كثيرة، عيناك تكشفان عنه دائماً: فترات الصمت هى بالنسبة لنا لغة صريحة حيث كل شىء مفهوم، لكن أشياء أخرى كانت مثل جناح أسود يمتد وأنا أظل غارقة فى الظلام دون أن أنجح فى اختراق تفكيرك. وهكذا مثلما يحدث الآن ولا حتى انتبهت إلى أننى هنا، بجانبك، أكلمك، وانظر إليك، ومنتظرة... لست موجودة بالنسبة إليك فى هذه اللحظة، لا فى الحضور، ولا فى الذاكرة. أنا ذاهبة. وسأتركك مع نفسك، فى ذلك العالم الخاص بك جداً حيث لا تحتاج لا لشيء ولا لأحد لكى تواصل حياتك. مغلقاً فى دائرتك، فى برجك العاجى الذى لا يمكن اختراقه، لكن عليك أن تتأكد أنك لن تجد السلام ولا الهدوء، ولا بد ستبحث عنى، كما فى المرة السابقة وتكمل الحكاية.

آه! لو أنك استطعت أن تعرف كم من المرات من العزلة بلا هدوء، تحت المطر الذى يتسرب فى سريانه البطيء فى الغياب، أو فى نهر الزئبق/ السوق الذى يجرى فى حلمى، تحت الوزن الخفيف للطيور أو فقط مع نزهاتنا المخيبة للآمال فى البحر، أعين الأسماك

بالليل، فى قلب السكون الذى يحيط بى تقطعه
أصوات الريح، وظلال الماء، وعبر الليل الطويل، أحس
بأننى أستعيد وجهك/ ملامحك، صوتك، كلماتك...
نعم، أعرف أنه يوماً ما ستهتدى إلى هذه الصخور
التي تغطيها نباتات كشه العجوز والطحالب. وتحتها
سأكون هناك.

٣ شارع استوكهولم

على الرغم من أننا كنا فى الخريف، فقد قضيت وقتًا طيبًا مساء اليوم الذى مررت فيه من كولونيا خواريث إلى شارع استوكهولم. فهناك كانا يعيشان فى رقم ٣ منذ نحو شهرين أوميرو وبيتى. ومع ذلك، كانت هذه هى المرة الأولى التى أذهب فيها إلى شقتهم الجديدة. والسبب الأول الذى حدث هو مرض ماما، التى لابد أن أكون بجوارها طوال الوقت، كما يحدث دائماً، لأن شيئاً ما أربك حالتها الصحية وهذا ما جعلنى عاجزاً عن زيارتهما. ماما من أولئك الأشخاص الذين يتوجسون من المرض بشدة، ويكرسون حياتهم فى حمل هم الجسم والروح، ولذلك إذا انتابها الإحساس بأنها غفلت ولو قليلاً، أو قصرت تسقط فى نوبات اكتئاب شديدة والتى تجعل مسألة شفائها فى وضع خطر. وبعد ذلك، من العمل لوقت متأخر والحرص على القيام به دون تأخر مما جعل الوقت يمر، ونحن أصدقاء جداً حتى أن عوائق مثل

هذه تقرر أن أياماً طويلة مرت دون أن نراها. وفي
ساحة البروفيسا توالى دقات السادسة مساءً عندما
ضربت جرس ٣ شارع استوكهولم. وأنا تقريباً مقطوع
النفس؛ وصلت إلى الطابق الخامس حيث توجد شقة
صديقى.

- لكن يا لها من مفاجأة سارة.

- فى النهاية تركتتا نراك.

والاثنان بدءا فى توجيه ألف عتاب على الزمن
الطويل الذى كان يجب أن أراها فيه، زمن طويل جداً
ولو على الأقل لأرى بيتهم الجديد. وأنا أحاول أن
أشرح لهما كل ما قد جرى لى ولذلك لم يكن ممكناً أن
أزورهما قبل ذلك.

والى حد ما اتضحت الأمور، بيتى خلعت عنى
البالطو وسارت بى إلى غرفة النوم؛ حيث تركته بينما
كان أميرو يرينى الشقة.

- لدى منظر رائع. قال ذلك فى الوقت الذى
سحب فيه الستارة لى أتمكن من الإعجاب بالبانوراما
الرائعة التى أضفى عليها الشفق صبغة خاصة متدرج
الألوان الوردية، ولون الغراء. أكدت له أن الشقة بدت
لى بالغة الجمال. وكانت كذلك فى الحقيقة، بعد تلك
الشقة الصغيرة، والشئ الوحيد الذى عرفته حتى
هذه اللحظة، مع نافذتها الكبيرة، حيطان مكسوة
بالخشب، والمدخنة، إنها من أكثر الأماكن اللطيفة
والمریحة. وهما قد زوداها بقطع أثاث بذوق جميل.
كنبة واسعة وكرسیان بمساند من تلك الكراسى التى

يفوص فيها الواحد بشكل مريح. دواليب برفوف مليئة بالكتب، منضدة للشغل، لوحات، مصابيح، وأشياء كثيرة صغيرة والتي يحب الواحد أن يراها ويجدها قريبة منه.

– الطوابق العليا لها فوائد كثيرة . استمر أوميرى فى كلامه.

كنت متفقاً معه، لكنه لم يدعنى لأبدى ملاحظة أن السلم ثقيل جداً فى الصعود عليه، وأنتى مازلت لم أسترد أنفاسى. "سرعان ما سيعتاد الواحد عليه، وعلاوة على ذلك فهو تمرين جيد للحفاظ على رشاقة الواحد ويحسن أداء الدورة الدموية.

جلسنا أنا وأميرو نواصل الحديث عن رضاه بأن يقيما فى هذه الشقة التى يكتشفان كل يوم فوائد أكبر لها، وأنه قد صادفهما حظ هائل بأن وجداهما فى هذه البقعة من المدينة، والاتصال الجيد بها، كما لو كانت قد صممت من أجلهما بالتحديد، متفقة مع احتياجاتهما، وبإيجار معتدل بما فيه الكفاية، دون أى ضجيج، وحيث يمكنه أن يشتغل بارتياح.

وبيتى عادت من غرفة النوم وهى تحمل علبة "بونبون"، وصندوق صغير من السجائر وخلفها، فتاة شقراء ترتدى فستاناً أبيض، ما أن رأيتهما تصلان حتى حاولت أن أتحرك عند نهاية امتداد الكنية لكى أفسح لهما مكاناً ليجلسا فيه.

– لا، لا تتعب نفسك، أنت فى مكانك أفضل، وأنا سأجلس هنا بجوار أوميرو . وقربت كرسيًا.

- ما رأيكما لو أخذنا واحد روم؟ - اقترح أوميرو.
- حالا - أكدت بيتى.

- تبدو لى فكرة طيبة - قلت أنا، الذى يجب أن
أعترف كانت مذهولة بما يكفى ومرتبكة بسبب قلة
التهديب تلك، أو بأية طريقة أخرى نسمى ذلك؟
لكونها لم تقدمنى إلى الفتاة ذات الفستان الأبيض.
أحسن من هذا لو فكرا بأننى أعرفها. لكن فى كل
الأحوال،... سألت نفسى أيضًا إذا لم تكن واحدة من
قريبات بيتى، إذ أننى أعرف عائلتها التى تعيش فى
نيويورك.

- بالنسبة لك أنت لا تحب الروم قويًا جدًا، أليس
كذلك؟ تذكر أوميرو وهو يجهز الكئوس.
- أنا أتركه لذوقك.

- وكيف حال والدتك الآن - سألت بيتى.

بدأت أطلعها فى خطوط عريضة على الحالة
الصحية لأمى دون أن أكف عن ملاحظة الفتاة بركن
عينى. والتى كانت قد بقيت واقفة أمام رف كتب تنظر
إلى المجلدات فيه. وأتى أوميرو بالكئوس لبيتى ولى.
وبعد ذلك أتى بكأسه وجلس. الاثنان لم يباليا بالفتاة
وأنا لم أجرؤ على أن أسألهم عن أى شىء، لأن
حضورها نفسه أثار الخوف فى نفسى، ولم أعرف ما
الذى تفعله هناك.

- من بواعث السرور أنك عندنا.

- ونحن سعداء برؤياك.

- وأنا لست أقل منكما . وكيف تمضى بك الأحوال

فى شغلك الجديد يا أوميرو؟

- جيداً بما فيه الكفاية، ساعتان أو ثلاثة فى

الصباح فقط، لا أستطيع أن أقول إن ذلك سيكون
عبئاً ثقيلاً.

- وهل هو ممتع ما تقوم به؟

- أقرأ الجرائد كلها، أقص الأخبار أو الملاحظات،

وأضعها فى ملف الأرشيف، وذلك كل شىء.

- أنت محظوظ، بلا شك، إذ أن ذلك يبدو لى

شغلاً ممتازاً .

- الأفضل ألا يكون هناك شغل - قالت بيتى وهى

تضحك - ألا ترى ذلك؟

واصلنا الحديث قليلا عن كل شىء . أوميرو

وبيتى تقرّباً كفا عن الكلام . وفى الحقيقة لقد كانا

بالفى الحميمية فى تلك الأمسية . وخلال ذلك، كانت

الفتاة قد اقتربت من حيث نجلس وجلست على كرسى

من القش، وسهل التحطم، ورشيق مثلها هى نفسها .

ومن هناك كانت ترقبنا فى صمت . نظرت إلى

صديقى بنظرة متسائلة، لكنهما لم يلما لى بأى

شىء . كما لو كانا لا يريدان أن يضعاهما فى الحسبان .

وعندئذ فكرت إذا ما كانت من أولئك الأشخاص

الذين يتجاوزون الحد فى الصداقة، وأنهما اعتادا

على القلق المخيف من الأصدقاء والجيران، ومن

أولئك الذين لم أعرف كيف أتخلص منهم وانتهى

بكراهيتهم حتى السعار .. كانت بلا شك التى يعرفون

كيف يتعاملون معها، حاولت، عندئذ ألا أشغل نفسي
أزيد من ذلك بحضورها. لكن ولا حتى هذا أيضاً
جعلنى أتجاهلها، وهى جالسة هناك، باللغة الهدوء، فى
صمت مؤثر.

مرات قليلة، كنت فيها غير مرتاح أبداً مثل تلك
الأمسية التى زرت فيها أوميرو وبيتى. فى شقتهم فى
٣ شارع استوكهولم. أنا من أولئك الأشخاص الذين
لتربيتهم الصارمة وتعذيب الجسد حتى النخاع ما هو
بالنسبة لحكمى أستطيع أن أصنف نفسى من
العناصر الخاطئة من النماذج الطيبة أو المهدبة. هكذا
الذى وحده بواسطة قوة هائلة، يحقق الصبر، ذلك
العبث والموقف الباعث على الضيق وقلت لنفسى إنه
فى وقت متأخر أكثر، أو عندما تكون هناك فرصة،
فهما سوف يفسران لى الدوافع الخاصة وبلا شك
سيقدمون لى البراهين التى لديهم لكى يتعاملوا بهذه
الطريقة مع الفتاة ذات الفستان الأبيض.

ألح أوميرو على أن نتناول كأساً أخرى، وبينما
كان هو يحضرها، نهضت لتوقد المصابيح؛ لأن الدنيا
بالفعل أظلمت وبالكاد كنا نرى وجوهنا. وعند مرورها
بالفتاة تعثرت بكرسيها، وإلى حد ما انطرحت على
الأرض؛ لكن ولا على الأقل لذلك راحت تطلب منها
أدنى اعتذار، واستمرت كما لو أن لا شئ قد جرى،
ولم أهتم بأى وجه تقابل الفتاة. ولأننى لم أجرؤ على
أن أنظر إليها. والآن لو بالفعل لم أعرف أن أفكر فى
كل ذلك، وقد بدأت أعانى من أجل الفتاة المسكينة

التي - بلا شك - ليس لديها أقل إحساس بعزة النفس
أو الضطنة حتى تمشى فى النهاية. الناس شديرو
الندرة أحياناً.

عاد أوميرو بالكئوس وواصلنا حديثنا. ولقد حكيا
لى أنهما ذهنا الشقة كلها حسب رغبتهما. لأنها قبل
ذلك كانت الجدران مغطاة بورق حائط مزركش غامق
والذى جعلها معتمة أكثر، واضفى عليها مظهراً كئيباً.
أيضاً وضعا مدفأة جديدة؛ لأن التي كانت موجودة لم
تكن تعمل بشكل جيد. ومالك المبنى كان شخصاً بالغ
اللطف، حتى أنه استجاب لكل ما طلبناه منه. حتى ولا
الضمان طلبه منهما فقط أعطياه شهراً مقدماً. لقد
رفعا القيمة الإيجارية لأنهما لا يجب أن يسببا له
ضيقتاً فى التخفيض حتى يحصلا عليها فلديهما ماء
ساخن على مدار اليوم، والغاز، والنور كلها متضمنة
فى عقد الإيجار. وفى النهاية أوميرو وبيتى لم يحلما
أبداً بأن يجدا شقة متعددة الفوائد/ المنافع مثل هذه.
ساعة البروفيسا دقت الساعة الثامنة بثمانى دقائق
لأجراس بدت لى حزينة. هكذا قلت لهم. بيتى أكدت
أنهما ليس لديهما ما يحزنهما وأنها كلها متساوية فى
كل الكنائس. عندئذ حدث عندما نهضت الفتاة
وسارت متجهة إلى غرفة النوم دون أن تقول شيئاً.
هكذا مثلما جاءت.

. لقد ذهبت فى النهاية . علقت فى صوت خافت
جداً، حتى لا تسمعنى هى.

- من التي ذهبت؟

- عمن تتكلم؟

- عنها - أجبت ببساطة، وب نظرة تشير إلى الفتاة التي دخلت تواء غرفة النوم، بينما أسائل نفسي ما الذي جرى لأوميرو وبيتي.

- أنا لا أفهمك - قالت بيتي:

- ألا تكون هي كئوس الروم؟ قال أوميرو مازحاً.

- لم أفكر أبداً في أن تكون هذه مزحة مع حضراتكما - وعاتبتهما - لقول الحقيقة كل شيء يبدو لي غريباً.

- هذا ربما يكون زلة لسان - قال أوميرو - لا أحد يعرف ماذا يقول الآخر.

- واضح أننا نعرف، لكن الآن انتهى كل شيء مرة واحدة - فسرت لهم.

- أنت متأكد من أننا لا نعرف عن...

- حسناً، في كل الأحوال، كانت عندكما واحدة زيادة هكذا، طوال الوقت - قلت لهم.

- عندنا هكذا، أين؟

- لكن، كيف تقول أين؟ هنا - وأشارت له على الكرسي الذي خلى من الفتاة - كانت جالسة ساعات وساعات دون أن تتكلم، كما لو أنها فتاة بائسة صماء. أعتقد أنها فتاة متجاوزة للحد أو غير محترمة.

- جالسة هنا؟ - علقت بيتي - كما لو بدون فهم، ونظرت إلى أوميرو محدقة فيه.

- ومن تكون؟ وما اسمها؟ - جعلت أدير السؤال مع نفسي.

- حسنًا. القضية هي، أن - بدأ أوميرو يقول
بينما هو يفرك راحتيه كما اعتاد لأن يفعل عندما
يكون عصبياً.

- إلى أين ذهبت؟ - سألت فجأة بيتى. وهى
تقاطع ما كان أوميرو متأهباً ليقوله.
- إلى غرفة النوم. أجبت.

ودون أن أتكلم أكثر من ذلك نهض الاثنان واتجها
إلى غرفة النوم، وأنا خلفهما. دخلنا غرفة النوم ولم
يكن يوجد أحد هناك. فقط رائحة قوية لزهور
الجاردينيا، ورائحة ناردين. رائحة حلوة بشكل زائد
ولزجة، كثيفة وقاتمة، جاذبة ومنفرة لدرجة أنه لا
يمكن الكف عن التنفس، والتي تقلب المعدة فى حالة
قيء لا يمكن منعها.

- لكن، هل تعتقد أن...؟ لو كانت ال...؟ كانت
بيتى تسأل أوميرو. وبيتى لها عيناان مفتوحتان على
اتساعهما وفمها يرتعش عند الكلام.

- واحد هو من يعرف هذه الأمور. علق أوميرو
ببساطة وهو يواصل فرك راحتيه، فريسة لحالة
عصبية هائلة.

أنا قررت أن أمشى فى هذه اللحظة. زد على
ذلك العقاب الذى سألتقاه من أمى التى بقيت وحيدة.
ولقد شعرت بالتشوش فى تفكيرى بما يكفى.

بعد ذلك عرفت أن أوميرو وبيتى انتقلا من ٣
شارع استوكهولم إلى مسكن آخر فى اليوم التالى.
بعدها عرفت أيضاً، أموراً أخرى كثيرة.

عنبر النقاہت

من كثرة ما حاولت لم تستطع أن تكف عن التفكير بأن كل شيء كان قد بدأ، أو تحدد بزيارة نينا وبيللى. أنخيلينا كانت مجتهدة بشكل زائد بأن يكون البيت لديها لا ينقصه شيء ليكون كامل الأوصاف، وكل شيء تم ترتيبه بشكل صحيح بحيث يعطى الانطباع لزوج الأخت الأمريكى الشمالى، وأن يحظى برأى طيب لعائلة زوجته ولبيتها. لعائلة وجيهة للغاية، ينظر إليها وبعناية بالغة، مما كان موضع اعتراضات عديدة فى زواج بيللى ونينا.

ولعدم معرفة. وهذا واضح! . إن الأصل كانت نينا، لكن فى النهاية أبدت رضاها. لا أنخيلينا ولا عمته استطاعتا حضور الزفاف بسبب عدم القدرة الصحية للسيدة التى تتمتع بذوق حسن مراعى للآخرين، فى تلك الأيام، وهى لم تجد ما يدفعها لأن تتركها مريضة ووحيدة. نينا كانت قد تزوجت فى نهاية العام السابق. ودائمًا يجرى فى رسائلها ذكر

سعادتها التي كانت، وحظها الطيب في أنها تزوجت من بيللى وافتخارها بأنها أصبحت ضمن عائلته السياسية، المهذبة جداً والوجيهة. وعندما تخبرهم نينا بأنهما سيأتیان بيللى وهى فى إجازة الصيف قبلها بشهر فقط. أنخيلينا بالفعل لم تهدأ. وتكرس نفسها روحاً وجسداً لترتيب وتنظيف ذلك البيت القديم مصرّة على، ولقول الحقيقة، فقد كانت شديدة الإهمال، لأن عمّتها تضيع الوقت حتى أنها لا تستطيع أو لا تريد أن تفعل شيئاً. وخوليا لانانا، امرأة عجوز أيضاً، وهى تكرس نفسها للمطبخ وتلتفت إلى تحقيق رغبات السيدة الكبيرة، وأنخيلينا التى تشتغل حتى الخامسة أو السادسة مساءً تدبر عدة ساعات فقط لتعمل ألف شىء. وتتأخر قليلاً عن عمّتها والتى تنن من حياتها التعيسة كامرأة مريضة ووحيدة.

بدأت بأن أنزلت الكتب كلها من فوق رفوف المكتبة، وأخذت تنفضها كتاباً كتاباً. وخلعت الستائر فى الغرف كلها وغسلتها وكوتها بنفسها خوفاً من أنها لو أرسلتها إلى المغسلة وفى أحسن الأحوال إما سيغسلونها بشكل سيئ أو يمزقونها.. فالمفترض أنها قديمة إلى حد ما ولذلك كان لابد أن يتم التعامل معها بعناية شديدة، لمعت المشمع وجعلت الأرضيات كلها تبرق مثل قطع الموبيليا الخشبية.. كان عليها أن تنشى الملاءات، ومفارش الأسرة.. وتنظف وتلمع الفضيات. وتنفض التراب عن براويز الصور، وعن الموبيليا، والسجاجيد، وأعدت طقم المائدة، وغسلت الشمعدانات والمرايا، وراجعت الكثير والكثير من

التفاصيل الصغيرة التي لم يكن من الضروري الاهتمام بها لو أن الواحد أراد أن تبقى بشكل طيب أو أن يعطى انطباعاً حسناً.

عندما حضر بيللى ونينا، كان البيت يبرق، وأحست أنخيلينا بالسرور والرضا. أما بالنسبة لنينا فقد كانت تحس بالزواج، ما من شك فى ذلك، فقد بدت مطمئنة، هادئة. وأيضاً طريقتهما فى الملبس قد تغيرت: كانت ترتدى فستاناً بسيطاً تم تفصيله بشكل تقليدى، وبألوان محايدة، واضعة مكياجها بتحفظ شديد ونسيت تماماً الرموش الاصطناعية، وباروكات الشعر المستعار، والفساتين غريبة التقاليع، التي كانت ترتديها من قبل. واجدة فى بيللى سلوى عن كل شيء، ولم تعد تتضايق من شيء. كم أحببت أن تلقى نظرة على نينا وقد تحولت إلى سيدة حقيقية. هذا ما علقته به فى مرات كثيرة أنخيلينا وعمتها، والتي لم تعتقد أن هذه المتزوجة حديثاً الكتومة جداً واللطيفة، كانت تلك الفتاة الملفتة للأنظار جداً، والمبالغة فى تصرفاتها أن تذهب ذات يوم إلى عملها فى الولايات المتحدة الأمريكية. "ليس هناك شك أن بيللى عرف كيف يحسن التعامل مع نينا". كانت العمة تقول ذلك فى كل لحظة "لكن، هل رأيت بدقة ما ترتب على ذلك بالنسبة لنينا؟ من كان يعتقد ذلك؟". "أنا لم أتوقع هذا التغير البالغ الجذرى...".

وإن كانت الاستعدادات للزيارة قد استنفدتهم، فإن الأيام التي وجد فيها بيللى ونينا قد تركتهم وقد فاض الكيل بهم. بيللى كان من جميع النواحي فارساً.

مهذباً للغاية، بالغ الرقة. ومنظماً بشكل منهجى صارم: فهو اعتاد أن يفطر فى الساعة الثامنة صباحاً ويتغدى فى الساعة الواحدة بالضبط، ويتعشى بين الساعة السابعة والنصف والثامنة وبفضل جدول المواعيد هذا فإنه يضمن أن ينهض بما عليه دون أى تعثر. وكان على المسكينة أنخيلينا أن تستيقظ فى الساعة السادسة صباحاً وتترك الطعام معداً قبل أن تذهب إلى عملها، لأن المرأة العجوز خوليا قالت بوضوح كامل إنها لا يمكنها أن تجازف بأن تقدم لهم الطعام فى هذه الساعة. وهى عندما تقول شيئاً، فهكذا يكون.

عند خروجها من العمل، تجرى أنخيلينا إلى السوبرماركت لتجىء بالمشتريات لليوم التالى وبعد ذلك، ويكل سرعة، تعد العشاء، وبعد العشاء يخرجان للسينما أو المسرح، يزوران بعض أصدقاء نينا أو من العائلة، يذهبان لحانة لتناول كأس أو يقومان ببساطة بجولة فى المدينة، وهذا شئ محبب جداً بالنسبة لبيللى. أما أنخيلينا فكانت، ولمرات عديدة تعتذر بأنها لا تخرج فى الليل، لكنها وقد لاحظت أن ذلك يضايق بيللى لم تعد ترفض. وإذا مكثوا فى البيت قضوا السهرة فى الحديث مع العمه كارلوتا أو يتفرجون على التليفزيون، وهكذا تدق الساعة الثانية عشرة أو الواحدة صباحاً وهو الوقت نفسه الذى يقضيانه فى حالة الخروج. وهى، التى تستيقظ مبكراً جداً فى تلك الساعة التى تجد نفسها متعبة فيها، ميتة من النوم والإرهاق، تحلم بطراوة سريرها ولحظات الاسترخاء

بخمول فيه. وعندما ترقد فى النهاية، فالتعب والتوتر العصبى يحرمانها من أن تذوق النوم، وما كانت تنجح فى الحصول عليه فقط هو أن تنام تقريباً فى الساعة التى تستيقظ فيها. وعندما يرتفع صوت جرس المنبه فى الساعة الخامسة والنصف تشعر أنخيلينا بأنها ليس لديها القوة لكى تنهض وأن جسمها لم تعد لديه القدرة أكثر من ذلك مع هذا الجهد الهائل الذى تبذله يوماً بعد يوم، وفقط هى بإرادتها هى التى تجعلها تقف على قدميها وتواصل ليوم آخر، ثم ليوم آخر... وهكذا مرت بها الأسابيع الثلاثة التى استغرقتها زيارة نينا وبيللى.

وعندما رحلا فى النهاية (وتأكد أن أنخيلينا أغرمت بنينا، والتى أحببتها دائماً ليس كأخت صفرى، ولكن كابنة، لأن نينا عندما ولدت وماتت والدتها، اعتنت أنخيلينا والعمة كارلوتا بالطفلة، التى صارت لعبتهما التى من لحم وعظم بالنسبة إلى أنخيلينا التى، منذ ذلك الحين، تركت اللعب بالورق، والسيلوليت، وأنخيلينا لم يكن عندها بالفعل فستان على مقاسها لترتيديه، كل فساتينها صارت واسعة عليها كما لو أنها لم تكن لها. كانت قد فقدت وزنها وصارت نحيلة. على الرغم من أنها لم تكن تحب أن تضطر للبدء فى استخدام القليل من اللون الأحمر لتجعل لوجهها لوناً وردياً تخفى به ذلك الشحوب المرعب. "أنت ترين أى تعب هذا الذى أشعر به، كما لو أننى أعانى إنهاكاً شديداً". هذا ما كانت تقوله فى

مرات عديدة للعمه كارلوتا، التى لا تسمح لأى شخص آخر أن يكون مريضاً أكثر منها.

"أنا، عندما كنت فى سنك، لم أحس أبداً بالتعب، كنت غير قابلة للتعب، أتحرك من الصباح إلى المساء كما لو أنه ما فى شىء يتعبنى. وعلى العكس، الآن، مع السنين، والأمراض الشديدة الخطورة التى أعانيها، والتى عندى، والأفضل أن أقول، لأن ما عندى أنا نفسى من أمراض خطيرة، وعلل، ومع ذلك انظرى كيف أحتملها...". وعندئذ تتكلم أنجيلينا فى شىء آخر، لأن عمته لا تضع فى حسابها أبداً مرضاً آخر ليس مرضها هى بذاتها.

وصباح يوم من الأيام أحست أنجيلينا بالتعب الشديد فى المكتب حينما كانت تتلقى ما يمليه عليها رئيسها. وفى الحال أرسلت إلى طبيب الشركة، الذى أمر بسلسلة من التحليلات، كما هو متبع.

- هذا أخطر مما كنت أظن. قال لها الطبيب ذلك عندما قدمت له أنجيلينا نتائج معمل التحاليل. هل لك أقارب من الدرجة الأولى، يا آنسة رويث؟ إذننى أريد أن أتحدث مع واحد منهم.

- فى الحقيقة أنا وحيدة، أختى وزوجها موجودان فى الولايات المتحدة الأمريكية، والعمه التى أعيش معها امرأة مسنة ومريضة و... وتوقفت عن أن تقول إن أنانيته زائدة للدرجة التى لا تجعلها تهتم بأى شخص.

- حسناً، فى هذه الحالة...

- والمرض الذى بى يا دكتور؟

- لوكيميا، يا آنسة رويث، يؤلنى كثيراً أنه من اللازم أن أقول ذلك لحضرتك.

- لوكيميا؟ لقد سمعت أنه مرض مميت، أليس كذلك يا دكتور؟

- طيب، نعم، بشكل عام هو هكذا، لكن هناك دائماً ما يمكن عمله، شىء نجريه، وفى هذه الحالة، حالة كون المرض لم ينتشر بالكامل، علينا ببذل كل شىء لإيقاف انتشار المرض.. ولقد تحدثت اليوم مع السيد دى لاجارثا ووضحت له ضرورة دخولك فوراً إلى المستشفى، فى مصح حيث تتلقين حضرتك كل العناية التى تستوجبها مثل هذه الحالات.

أنصت أنخيلينا إلى ما اقترحه الدكتور دون أن تقول شيئاً، كما لو كان يعرض اقتراحه على شخص آخر وليس عليها. بقيت مكسورة النفس، ومذعورة. هكذا فجأة، وبدون مقدمات، محكوماً عليها بالموت. وبموت ربما وشيك. والواحد لم يكن مستعداً أبداً للموت، على الأقل هكذا، حيث لم يكن يتوقع، وكما يقولون دون أن يروض النفس له، ببرود. خرجت من العيادة وهى تسير ببطء وتثاقل، مخنوقة بهذا القدر المحتوم.

السيد دى لاجارثا تصرف بشكل رائع عندما عرف من الطبيب خطورة الحالة، فأمر بإدخال أنخيلينا إلى المستشفى الإنجليزى؛ حيث يذهب فقط إليها كبار الموظفين بالشركة وحيث لم يضمن بالنفقات المطلوبة من أجل سكرتيرته، والتى يعترف باجتهادها

والأثر الكبير لعملها، ولأنها كانت السكرتيرة الأكثر تهذيباً وكفاءة ممن عملن معه.

عندما علمت العمدة كارلوتا بأن أنجيلينا ستذهب إلى المستشفى الإنجليزي كي تخضع للعلاج هناك لأن عندها أنيميا شديدة لم يكن ذلك أقل مدعاة من أن تعلق مع خادمتها على ذلك بأن هذه مبالغاة خالصة من أنجيلينا، "أن تكون عندها أنيميا ليس شيئاً فى النهاية. لو أن أنجيلينا عندها كل الأمراض التى عندى لا أعرف ما الذى كانت ستفعله، ومع ذلك، أنا هنا أعانى فى صمت". هذه التعليقات وأخرى كثيرة كانت ترددها كل لحظة.

بقيت أنجيلينا ملازمة للفرش فى الغرفة ٢٥٢ يوم السبت ٢٠ يوليو. وكانت الغرفة لطيفة، لها درجة حرارة مناسبة، وإضاءة كافية وتطل على الحديقة. وأخذت هى معها فقط الراديو النقال (الترانزستور) وعدداً من بعض الكتب، فأية روعة فى أن يكون بإمكانها أن تمكث طوال النهار فى سرير رطب، لطيف، دون أن يكون لزاماً عليها أن تبذل الجهود الفظيعة لكى تنهض من نومها كل يوم، وتذهب إلى العمل، وإلى السوبرماركت، وتجرى من هنا وهناك لتلبى نزوات واحتياجات العمدة كارلوتا. أن تستطيع أن تبقى فى سكون، وهى تفكر دون أن تستمع إلى الصرخات ولا الأنين والتشكى: "إنها حياة مخزنة عندما تكون الواحدة عجوزاً ومريضة، كل الدنيا تمرض لوحدها، ولا أحد يشغل نفسه بى، أنا تحولت

إلى عائق، ولم أعد صالحة لشيء... "قادرة على أن تتأمل السماء من سريرها، وأشجار الحديقة، وتتطلع إلى عبور السحب، والطيور، وتستمتع إلى برامج الراديو العالمية. وتلك الموسيقى الغربية التي تملأ روحها بسلام لا حد له. والمؤكد أنه لم يكن هناك شيء سيئ، والذي من الأفضل / من حسن الحظ أنه لم يأت. كم كان عذباً ما اقتحمها، طمأنينة لم تحلم بها أبداً.

في صباح اليوم التالي، كانت قد قضت وقتاً طيباً، والآن فإنها تمطر أحياناً طوال اليوم، أو تكون مغيمة وباردة، فتخرجها الممرضة لتتنزه في الحديقة، وهم لا يسمحون لها بالمشي سوى للضرورة حتى لا تتعب أكثر، والممرضة إسبيرانثا تنقلها بكروسي بعجلات وببطانية فوق الساقين، وهكذا يقطعان تلك الطرقات المرصوفة بالزلط لهذه الحديقة الكبيرة والمعتنى بها جيداً والتي ما أكثر ما أحببتها. فكانتا تتوقفان لتحييا مرضى آخرين، أو يتحدثا معهم، وبعد ذلك، تضع إسبيرانثا الكرسي ذا العجلات في الظل وهناك وتبقيين حتى تحين ساعة الغداء. أحياناً كانتا تتبادلان الحديث، وفي أحيان أخرى، أنخيلينا لا تكون لديها الرغبة في أن تفعل فتغمض عينيها وتتوه في أفكارها وذكرياتهما، وعندئذ تخرج الممرضة رواية مصورة، وتأخذ في القراءة. وتقريباً في عمق الحديقة كان هناك عنبر بالغ الصغر ومنعزل عن بقية العنابر، حيث لا تشير أية حركة فيه الانتباه، وحيث لا يدخله

ولا يخرج منه أحد. وهذا جذب انتباهها، بل الأفضل إنه أثار فضول أنخيلينا، ولمرات عديدة مرت من هناك أو كانت قريبة منه، جالسة فى كرسيها ذى العجلات. وكرست نفسها كى تحاول أن تراقب أى أثر للحياة. وذات يوم سألت الممرضة: لماذا هو وحده تمامًا ذلك العنبر؟

– إنه عنبر النقاهاة . أجابت إسبيرانتا .

– عنبر النقاهاة؟ وما يكون ذلك؟

– إنه حيث يحضرون إليه الذين يموتون . وأول ما تحدث الوفاة ينقلونهم بسرعة شديدة، قبل أن يفكر بقية المرضى وتتهار أعصابهم . وهناك يحتفظون بهم حتى تصل الأسرة ويأمرؤا لأية وكالة دفن موتى سيرسلون فى طلبها . وعندما يكون الموتى ليسوا من العاصمة وجاءوا للعلاج من مكان ما فى الجمهورية، يمكنثون فى عنبر النقاهاة، لعدة أيام، حتى يصل الأهل أو شخص ما يطلبهم . ومن الواضح أنه فى هذه الحالات فإنهم يجهزونهم حسب الأصول لكى يتحملوا الانتظار ولا يتحللون .

– وعندما لا يموت أحد؟

– حينئذ يكون العنبر خاليًا، كما هو الآن .

– (إنه خال، كما هو الآن، إنه خال، كما هو الآن،

وكما هو الآن، هو خال، إنه خال، كما هو الآن، كما هو الآن...) . رددت أنخيلينا ذلك بينها وبين نفسها كلمات الممرضة . هاتان الجملتان أثارتا مشاعرهما

واضطرابها. وبلا شك حركتا شيئاً دفيناً شديد العمق بداخلها مثل نبع تحت الأرض.

من هذا اليوم وأنخيلينا تطلب بشكل دائم من الممرضة إسبيرانثا أن تترك الكرسى ذا العجلات أمام أو فى جانب العنبر، كما لو كان هذا موديلاً وهو ما سترسمه كلوحة زيتية على قماش. لكن الرسم كان من الداخل. وهى كانت ترقب، بتأنٍ شديد واهتمام ذلك المبنى المختلف قليلاً عن العنابر الأخرى: أكثر تقشفاً، أكثر بساطة، مدهون باللون الأبيض. كان لطيفاً جداً، مما يستوجب أن يكون أهلاً تماماً بالناس، بالضجيج، بالحركة، وليس هكذا غارقاً فى هجران كامل، يلفه السكون، كما ينصب فيه السكون نفسه، وفى الوحدة. "أى ظلم، وأى تعاسة" فكرت أنخيلينا.

فى بعض الأيام، لم يريدوا إخراجها للنزهة، لأن اليوم كان بارداً، أو أن أنخيلينا عندها درجة من الحمى، ويمكن أن تأخذ زكاماً أو شيئاً آخر أكثر خطراً. وهى ألحت، وعادت تلح فى أن يسمحوا لها بالخروج إلى الحديقة لتقوم بجولة وحدها. أحياناً كان السماح لها مرفوضاً فتقضى هى اليوم غارقة فى الإحباط والضيق؛ لأنها لا تعرف إذا كان العنبر خالياً لا يزال أم أنه انشغل.

فى تلك الأيام، أنخيلينا فقدت شهيتها للطعام، الحمى زادت. وبدء استفسرت عن المرضى الأشد مرضاً، كيف سيستمرون؟ هل هم فى نفس الحالة أم إنهم قد صاروا فى حالة أسوأ؟ ومتى؟، وكيف؟ وما الذى يقوله الأطباء؟.

ومرة خلال أسبوع جاءت رسالة من نينا وبيللى مع أطيب تمنياتهما بأن تسد أنخيلينا حاجتها بمرضها. رسائل باللغة الحميمية دائماً، مليئة بالقوة والتفاؤل ودعوها لأن تقضى معهما فترة فى أقرب وقت يأمر به الأطباء. خوليا الخادمة، تكلمت مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع من ناحية كارلوتا، لكى تسأل كيف تمضى الأمور، أيضاً من المكتب فقد سألوا عن أخبار صحتها، وأيام الأحاد، يوم الزيارة، وكان ذلك عن طريق مندوب من السيد دى جارتا، وحياتها وليعرف إذا كانت تعالج جيداً وإذا كانت فى حاجة إلى شىء ما. والسيد دى جارتا ذهب لرؤيتها فى مناسبتين؛ وكانتا زيارتين قصيرتين جداً، لكن كم كان ذلك لطفاً كبيراً منه، إذ أنه، وهذا تعرفه جيداً، وتذكر جيداً أنه يكره الذهاب إلى المستشفيات وزيارة المرضى. والشىء الرئيسى فى داخل المستشفى هو أن أنخيلينا كانت تنتظر يوم الأحد بفارغ الصبر، فكانت تجرى حديثاً بالغ التوهم مع شخص ما من المكتب، ومعرفة أعياد الميلاد، وكل ما يحدث فى غيابها. عملها، المكتب، رئيسها ومعاونوه كان ذلك كله عالمها. بعد ذلك، شيئاً فشيئاً، بدأت ترغب فى ألا يكون هناك من جاء لزيارتها، وبالفضل لم تعد تحب أن تكون لها زيارات، لأن ذلك يحول بينها وبين أن تذهب إلى العنبر، تجلس أمامه، منتظرة فى شوق بالغ أن يكون قد انشغل أو يشاركها وحدتها.

وفى صباح أحد الأيام، مثلما فى الشهرين اللذين بقيت فيهما فى القسم الداخلى، الأطباء الذين كانوا يعالجونها قالوا لها هذا الخبر:

- لو أن كل شيء سار على ما يرام، هكذا كما
يجرى حتى الآن، فسوف نسمح لك فوراً بالذهاب إلى
بيتك يا آنسة رويث - والدهشة جعلت عينيها تشعان،
دون أن تصدق ما تسمعه.

- إلى بيتي؟

- بالضبط، كما سمعت حضرتك، فحالتك
المرضية تغيرت بشكل إيجابي، حتى إنه بإمكانك أن
تغادرى المستشفى فى وقت قصير، وأن تواصلى، فى
بيتك مع العلاج.

خرج الأطباء من الغرفة ليتركوا أنخيلينا فى
ارتباك شامل وحيرة. أفكارها كانت أمهارة نافرة؛
"تتركى المستشفى فى أقل من الوقت الذى تفكرين فيه
بذلك، تذهبين إلى بيتك، تهجرين العنبر، تغادرين
المستشفى فى وقت قصير، خلال أيام، تذهبين إلى
بيتك تهجرين العنبر وهو مازال أكثر عزلة، لأن الآن
قد وجد من يشفق عليه، من يتفهمه، من يشغل نفسه
بوحده، بهجرانه، ذلك ليس محسوباً فى خططك،
تذهبين من هناك فى وقت أقل مما كنت تتوقعينه،
لا بد أن تذهبي وتتركيه، أكثر وحدة الآن، أكثر وحدة
وأكثر حزناً، لا يمكن أن يكون، وهى لا يمكنها أن
تقبل، لا يمكنها...".

- يا آنسة رويث، أقراصك، يا آنسة رويث...
حضرتك غارقة فى التفكير، هل يشغلك شيء ما؟

- لا يا إسبيرانثا، لا شيء، كنت سرحانة، هذا كل

شيء.

فى تلك الليلة لم تتم أنخيلينا مثقلة بتلك الدوامة من الأفكار، التى تتزاحم فى عقلها دون أن تجد لها مكاناً لحل يرضيها، وعندما جاءت ممرضة وردية الليل فى السادسة صباحاً، لتأخذ قياس درجة حرارتها، وأمارات حيويتها، وجدت أنخيلينا متيقظة وخائفة القوى من الأرق طوال الليل، شاحبة جداً، وغائرة العينين.

- لكن ما الذى جرى لك يا آنسة أنخيلينا؟ هل تحسّين بأنك لست فى حالة طيبة؟

- لا يا كارميليستا، أنا فى حالة طيبة . أجابتها أنخيلينا بصوت خافت . وما حدث هو أننى لم أتمكن من النوم طوال الليل . وهذا هو كل شيء .

- لكن يا له من حظ سيئ؛ لقد كنت فى حالة جيدة جداً حضرتك! كان وجهك نضراً جداً بالأمس! وبدأ بالفعل أنك لست مريضة وبالفعل شفت (رأيت) الدكاترة وهم خارجون من عندك سعداء .

تناولت أنخيلينا وجبة الإفطار بلا رغبة وفى ببطء، مكتئبة ومستغرقة فى التفكير. وعليها أن تجد حلاً فى أقرب وقت ممكن، ولكن، كيف؟ وما هو؟ أن تخرج، لكن هى لا يمكنها أن تذهب وتترك العنبر. ستكون قاسية جداً، وليس فى قلبها رحمة، وستكون إنسانة خائنة، نعم، هذا هو بالضبط، إنسانة خائنة، وهى لم تكن خائنة أبداً .

- أتصور أنك فى هذا اليوم ليست لديك الرغبة فى الخروج للحديقة لتقومى بنزهتك .

سألتها إسبيرانثا، وهى تخرجها فى حالة الغياب عما حولها.

- كيف تقولين ذلك؟ طبعاً أريد أن أخرج! تعرفين حضرتك إن تلك الفترة فى الحديقة تجعلنى فى حالة أفضل. فأنا أحب كثيراً أن أرى الزهور، والحشيش الأخضر والأشجار، والطيور، وأستنشق بشكل عميق الهواء النقى، وأحس بدفء الشمس، وأتأمل السماء والسحب، كل ذلك، لكن، لماذا نضيع الوقت ونحن نتكلم؟ الأفضل أن نذهب إلى الحديقة.

وهناك، أمام العنبر، وتحت الظل اللطيف للشجرة الكبيرة، شجرة الفراولة، أحست أنخيلينا بأنها تنتعش وتستعيد قواها، وكل شىء تغير بمجرد ما استطاعت أن تتطلع إلى العنبر، عنبرها. نعم، الأحسن أن تقولها، إنه عنبرها، إنها تنتمى إليه؛ لأنها قد اكتشفت وحدته، أدركتها وشاركتها إياها، وكانت مشفقة على انتظاره الطويل، وسكونه العميق، لقد اكتشفت الحزن الهائل لكونه دائماً وحيداً، ودائماً خالياً. مرات قليلة جداً يكون مشغولاً ولوقت قصير جداً. لساعات، ليوم أو يومين بعد ذلك الانتظار، والانتظار، والانتظار.

- إنها الساعة الواحدة الآن. قالت ذلك إسبيرانثا بصوت كما لو كان آتياً من بعيد. علينا أن نعود أو سنجد طعام الغداء قد برد.

وحتى فى هذه الليلة لم تتم أنخيلينا، قضت الليلة بطولها تمعن التفكير فى الأمر عليها أن تجد شيئاً

يحول دون رحيلاها، لا يمكنها أن تذهب وتترك العنبر مهجوراً. فهي لا تقدر على شيء مثل هذا، لا تقدر، لا تقدر، ولا تريد أن تذهب، وسوف تبقى هناك لأن هذه هي رغبتها، لكن، ماذا تفعل؟ كيف تعترض؟ وهكذا ظلت تتقلب وتتقلب في السرير، والنوم لم تذقه. فضلا عن أنها لم ترغب في النوم، هي ترغب في أن تجد حلا هي في حاجة إليه، وعليها أن تعثر عليه بسرعة، قبل أن يرسلوها إلى بيتها، وينتزعوها نهائياً من عنبرها، إنها ستذهب بحزن لا حد له، وألم شديد وهو سيبقى وما زال أكثر وحدة، دون أي أحد يجلس أمامه ويتأمله ويشفق عليه، ويترقب إذا ما كان أحد قد وصل، إذا ما كانوا قد حملوا إليه ميتاً، أيام كثيرة مضت دون أن يموت أحد. لقد طفق الكيل! مع كثرة المرضى بأمراض شديدة الخطورة كما هو حاصل، ويمر يوم وآخر، وآخر ولا يموتون. وهي تتساءل بشكل متوارٍ مسيطرة على تشوقها، "كيف تمضي حالة السيدة إسكوبار؟ أجل. آه إنها لا تزال تعاني المسكينة، وإنه شيء لا يمكن تصديقه القدرة على المقاومة التي لدى بعض الأشخاص، فالأسبوع الفائت انكبوا على الصلاة باستمرار وآه.. مازالت...".

"والسيد في الغرفة ٣٠٥ دون سيبيرو لا يزال أيضاً على حالته نفسها، أحياناً يبدو عليه أنه سيودع وفي اليوم التالي ينتعش، والعائلة بالفعل فقدت الأمل وأيضاً تعبت والمصاريف باهظة...". "والسيدة الإسبانية؟ آه، هذه المرأة المسكينة الآن تبدو أكثر قريباً

من الموت منها إلى الحياة، لكنها لا تزال تتردد أنفاسها، كم عانت المسكينة...". ذلك ما تقولونه، وهى التى لديها أمل خفى فى أن شخصاً ما يكون قد مات ويكون فى عنبرها. ترافقه ولو للحظة واحدة فقط، لكن لا أحد يموت والعنبر المسكين محكوم عليه بالوحدة الفادحة الأكثر وغير العادلة، بالضيق الأكثر من الانتظارات، تلك كانت حياته. انتظار، انتظار، انتظار، لكن لماذا هذا القدر المروع؟ فالعنابر الأخرى ممتلئة بالناس، دون أن تكون غرفة واحدة فيه خالية والمسكين وحده.... ومرة أخرى أنت مستيقظة، كم إن ذلك شئ سيئ. أنا لن أذهب للدكاترة؛ لأنهم لن يروقهم ذلك. هذا ما قالت ممرضة وردية الليل.

منذ ذلك اليوم، اتفق الدكاترة على أن تتناول أنجيلينا قرصاً منوماً ساعة تناولها وجبة العشاء وحتى تنام جيداً. وهكذا سارت الأمور. تلك الليلة نامت أنجيلينا كما ينام الأطفال، بنوم عميق وسليم. مما أسفر عن نتائج طيبة تم الحصول عليها بالدواء، والذى يصفونها لها يومياً. لكن أنجيلينا كانت قد توصلت بسرعة إلى حل وهو الذى كانت متلهفة عليه بشدة، وبالمثل كانت تبحث عنه بلا أمل عبر الأرق. تلك الليلة بعد أن تناولت عشاءها أعطوها أقراصها، وهى تظاهرت بأنها تناولتها، لكنها أخفتها بعناية شديدة، وهكذا يوماً بعد يوم.

والآن أنجيلينا هادئة، متأنية وصبورة، وتحصى أقراصها مثل البخيل الذى بعينيه الشرهتين

المتهاكتين على المال تحصى كنزها يومياً، وعلى الرغم من أنها لا تتناول أقراصها فإنها تنام جيداً. تمكث طويلاً، حتى لا تضايق بقية المرضى، تستمع إلى موسيقاها الكلاسيكية التي تحبها بشدة حتى نهاية البرامج في منتصف الليل. بعد ذلك تغمض عينيها، وتبدأ في حلم اليقظة كما لو أنه هنا، في النهاية هنا في العنبر، غارقين في السكون المتبادل والسلام التام في الوحدة نفسها في الألم الطويل للانتظار عبر الحياة عبر المكان المقدس المظلم والرمادي دون صدى، ودون تشوش، ودون إدراك في الفراغ الطويل دون تواصل يوحد تماماً بينهما، ويمزجهما في تحقيقات كاملة... نعم، هذا صحيح. هذا ما قالت أنخيلينا تلك الليلة وقررت ألا تؤخر أكثر من ذلك هذا النوم الذي ما أكثر ما حلمت به.

العناق

أمام النافذة، كانت جالسة تتسلى وهى تنظر إلى قطرات الماء التى تنزلق على ألواح الزجاج. كانت ليلة ممطرة ومظلمة من ليالى الخريف. واحدة من تلك الليالى التى يسقط المطر فيها ببطء وبشكل متواصل برتابة البكاء الأصم. وذلك البكاء الذى تسمعه فى أركان البيوت المهجورة. ومن مقعدها كان باستطاعتها أن تشاهد البروق، التى تقذف بالشرر فى ذلك الأفق المظلم من البنايات التى لها شكل "السلويت"، والتى تضاء للحظات خاطفة فقط بزور الصواعق. ومن حين لآخر تلقى بثقلها المتزايد على النافذة، وتشرع فى تأمل الشارع الخالى والمطر الذى يتساقط فوق البلاطات العتيقة مشكلاً بركاً أو متسرباً ومنطلقاً فى مجاريه. وكان ذلك تقريباً كل ما كان باستطاعتها أن تفعله فى تلك الليالى عندما تتناقص إنارة المدينة وتنخفض إلى حد بعيد أو تنقطع على فترات؛ بسبب التخفيض المستمر للطاقة الكهربائية. الليالى التى يشتد فيها الحزن والتى تحس فيها بثقل الماضى

بالكامل حياً. والوحدة تجثم عائدة مثل هذا الصمت الهائل، يقطعه فقط بأصوات الرعد، أصوات عواء الكلاب التي تقيدها الجيران. أو بالرياح التي تضرب الأبواب والنوافذ. وبعد أن تعبت من النظر إلى الشارع، تناولت شغلها من فوق الشماعة وجلست تواصل نسجها، وفي النسج أيضاً ذكرياتها عندما كانت هي، مارينا، تنتظره ليلة بعد ليلة تترقب وصوله من خلال ستائر النافذة الشفافة، قلقة حتى الموت، إذا لم يأت في وقته. وبقدر ما تمر الدقائق تصير أكثر عصبية، تنظر في المرأة كل خمس دقائق لتضع البودرة على أنفها. مرة أخرى، وتعطر نفسها، والكريم في يديها، تمشط شعرها، وتعيد تمشيط شعرها، ومن جديد العطر، وبالمبرد تنعم حواف أظافرها، وتبدل وضع الخطوط بجوربها، تحاول أن تقرأ لكن ما من قراءة نجحت في جواب اهتمامها، فرمت بالكتاب فاقدة الرغبة. وراحت وجاءت في البيت وهي تتطلع إلى الساعة، صحت، جرت إلى النافذة. كم من المرات بكّت خائفة من أن شيئاً ما سيحدث، أو أنه لم يعد يحبها أكثر ولن يعود أبداً وأيضاً كم تعذبت وهي تفكر في أنه قد يكون مع امرأة أخرى، وانتحبت مفسدة المكياج بشكل مثير للراء متمماً ما تعانيه من ألم ويأس حتى سمعت في النهاية المفتاح يدور لمرات في "كالون" الباب. الصرير الطويل كأنين مؤلم، من باب فتحته الريح وجعلته يرتج، وعصفة هواء وصلت إليها كانت مثل نفس بارد بجانب وجهها. هبةٌ ثلجية خفيفة.

أصلحت مارينا وضع الشال الصوفى وراحت لتغلق الباب. وعادت لتجلس وتواصل نسجها، راكيل كانت قد علمتها كيف تنسج. راكيل، وحنين عظيم غزاها واستدعى اسم صديقتها، صديقتها الوحيدة، ومنذ المدرسة لم تفترقا. مارينا تحكى لها عن كل ما يخصصها، على الرغم من أن راكيل تراقب/ تعيب عليها/ تلوم سلوكها فى وجودها وفى تفكيرها. ومهما كلف الأمر تريد أن تغيرها. وكان طبيعياً أن راكيل، تربت داخل أطر أخلاقية صارمة أكثر من اللازم، مليئة بالتشكك والتردد لا يمكنها أن توافق ولا أن ترضى بشيء، يخرج عن أصولها، لكن بالرغم من كل شيء فقد منحتها ثقة كبيرة. كم بعدت، ففيما مضى كانت تلك الليالى عندما كانتا تتناولان الشاي فى الصالون الصغير بموبيليا من طراز لويس الخامس عشر فى بيت راكيل!.

هناك كانتا تتحدثان ساعات وساعات، حتى يحل المساء وهى تقريباً تمضى جارية من أجل أن تنتهياً وتنتظره "أعتقد أنه لا أحد قادر على الحب مثله، يا راكيل" تقول لها ذلك دائماً، وراكيل تبتدى استنكارها وهى تهز رأسها، وقد رسمت ابتسامة دون أن تقول شيئاً. كم تأملت عندما تزوجت راكيل وذهبت لتعيش فى فيينا. لا أقل من فيينا، مكان على مسافة شديدة البعد. كانت تحس بحزن بالغ ومكتئبة فى يوم الزفاف كما لو كانت بداخل الهاجس بأنها ستفقد ها. هاجس سرعان ما تحقق، لم تحب هى أبداً حفلات الزفاف، وقليلًا جداً ما وقفت إلى جانب راكيل، وتلك الأخرى،

تلك التى قررت حياتها... أقبلت فى بداية الزفاف بفستان وقبعة، فستان مطرز بأشكال زهور الليلك والذى كان رأيهن كلهن أنه كان بالغ الجمال، لكن هى لم تحس بالرضا عنه، بل ضايقها. لا. لا. إنه وحده هذا، وعانت من إحساس شديد الخطورة؛ وآلمها كثيراً، كثيراً، أكثر مما تستطيع أبداً أن تتخيله، أن تتزوج منه هو، الصديق الذى أحبته منذ الطفولة، والذى كان دائماً قريباً منها فى كل اللحظات المفرحة والمؤلمة. وأثناء القداس لم تكن قادرة على أن تفرح بل كانت تبكى دون أن يعزيها شيء أو يهملها شيء. وفى هذه الكنيسة المزدحمة بأناس فى منتهى الأناقة، بالزهور وبالموسيقى، كانت تعرف أن ذلك كله عبث، وفوق كل شيء فإنها مظاهر متكلفة. لم تتحمل أن تنظر إليه مرتبطاً على الدوام بتلك المرأة التافهة، السوقية، والتى بلا أية جاذبية.. لا تستطيع أن تحتمله؛ لأنها تعرف عندئذ، بكل تأكيد، أنها أحبته، وأنها تريده لها هى فقط. وبعد الاحتفال ذهبت مع راكيل إلى غرفة المقدسات لتهنئة العروسين وراكيل لم تكن قد ضاغت أحداً حتى هذه اللحظة، لكن لا يمكن إنكار أنها قد اكتشفت ما مر به، وعندما عانقته لم يستطيعا أن يمنعا أنفسهما من أن يلتفتا ليمسحا دموعهما، "إنه عبث، ألا تعتقد ذلك؟" كان هذا هو الشيء الوحيد الذى جرى قوله، لكن فى عينيه وبداخل الارتجاف المتبادل للعناق رأت أنه لم يكن عبثاً، وأن الحياة بدأت للآتين فى هذه اللحظة. لم تعد أبداً لمعرفة شيء عن راكيل منذ أن رحلت لتعيش فى فيينا، ولم تستلم منها

ولا رسالة واحدة طوال كل تلك السنوات. ربما الزوج هو الأكثر امتلاء بالأوهام بأن راكيل نفسها هي التي تحرم هذه الصداقة ربما... من الذى يستطيع أن يعرف؟ إنهم كلهم فقدوا تقريباً الزمن نفسه، ففى عدة شهور بقيت وحيدة تماماً. لكن مارينا تفضل أن تتذكر أموراً أخرى، لحظات أخرى، تلك التى تملأ حياتها، تلك الليالى التى كانت فيها، وهذا ما تتمناه الآن، تريد أن تموت من اللذة بين ذراعيه، عليها أن تكون جميلة كي تموت وهى كذلك. الأيادى متعانقة، والضمآن انطبعا، والتنفس جرى بإيقاع واحد، والارتعاشة واحدة، وبعدها.

مارينا بدأت تشم رائحة مثل رائحة زهور البرتقال أو زهور الليمون، أو أوراق النارج: عطر انتشر فى الغرفة، شمت يديها، فلم تكن لهما رائحة. ربما رائحة صابون، تنفست بعمق، إنها الرائحة التى أحببتها كثيراً، رائحته، عندما يمسح وجهه بماء اللافندر. "العطور تهب مثل الذكريات، لكنها باقية دائماً". فهو عندما يذهب، تفتش مارينا فى السرير عن رائحة جسده وتعود للنوم وهى تفكر أنه مازال يواصل النوم بجانبها. وعندما تحكى له عن ذلك، يضحك. كم تحب أن تراه وهو يضحك، إذ تراه أكثر شباباً لا يزال، بقصة الشعر الشقراء التى سقطت على جبينه، وتلك التكشيرة الساخرة التى جعلت شفتيه بمثل هذه الرقة ومرسومتين بجمال. فعندما يضحك يكون مثل الطفل. كم كان محبباً، وكم أحبته جداً. أن تكون هى هنا، خارج الزمن، دون أن تكون

مهمة فعلا بشيء. بعيدة عن الكل، وعن كل شيء، قريبة، فقط تتذكر لحظة بعد لحظة، وكلمة بعد كلمة، كما لو أن السنين لم تمر، كما لو أنه فقط بالأمس... ومارينا تحس بحاجة قاهرة لأن تراه، لتعرف كيف صار هو. نهضت وراحت تبحث عن صندوق؛ حيث تحتفظ فيه بالرسائل، الصور، مندبل، زهور جافة، وكل تلك الأشياء الصغيرة التي حافظت عليها... هنا كانت محاطة بالأساتذة يوم حفل استقبال المحامي؛ وما أن راحت مارينا تتأمله حتى شعرت بجيش من النمل يصعد في أوردتها وبكاء شديد خنقها. توقف التيار الكهربائي مرة واحدة رج الليل والنور انقطع.

ظلت مارينا بلا حراك ومعها الصندوق مفتوح تنتظر أن يعود النور. وببطء بدأت الدموع تتحدر فوق خديها، وبعد وقت طويل لم تستطع فيه أن تبكي. وعندما ظنت بأن الدموع كلها جفت، أتت الآن، كمطر بارد، ليرطب عينيها المحمرتين من قلة النوم... الوهج الخافت للمبة الجاز، والتي اعتادت أن تحتفظ بها في غرفة نومها، سمحت بأن يصل منها إلى الصالة ضوء خافت. كانت تحتفظ بهذه اللمبة مضاءة بشكل دائم، لأنها تحب أن تظل كدليل على الحب الخالص. وعندما عاد النور، أخذت تتأمل الصورة التي بللتها الدموع... كانت ترتدى فستانًا غامقًا ليلة حفل الاستقبال، إنها ترى شديدة الجدية، إنها الأعصاب بلا شك، فهي عصبية جدًا، وعصبية زائدة، أكثر مما يتصور أصدقاءها، ويداها دائمًا باردتان، ومبتلتان من

العرق. لقد أخذ يديها بين يديه حتى يزيل منهما
التصلب، ويدفئهما، يداها كانتا نحيلتين، وطويلتين...
وفى تلك الصورة الأخرى، كانا هما الاثنان مع
أصدقاء... وبعد العشاء كان عليهما أن يرقصا،
ورقصت بشكل جيد جداً، تذكرت الخطوة تلك التى
مع خطواته، كما لو أنها داست بخفة على قدمه عندما
كانت تقوم بالدورانات، كان هو فارغ الطول، وهى
تصل إلى كتفه، وهناك استقرت رأسها، ودائماً كانا
شديدي الالتصاق، ومتعانقين كما لو كانا جسداً
واحداً، وهى أحيت بداخلها ارتعاشات عميقة، ذبذبة
سرت فى كيانها كله، وما تتذكره فى وحدتها. انتابها
دوار خفيف من كثوس الكوكتيل، جعلتها تخطو
مسرعة، وخلعت حذاءها ثم جرت حافية إلى
الستارة... أنصتت مارينا إلى وقع خفيف لخطوات
كما لو أن شخصاً كان داخلاً إلى الصالة، ذلك
الصرير لخشب الأرضية القديم الذى يحدث عندما
يمشى أحد فوقه. "إنها فقط قطع الأثاث التى يسمع
صوت صريرها من الرطوبة، قطع الكومودينو،
الترابيزات، الكراسى، كلها تطلق، كلها تن، لقد
سمعتها لمرات عديدة، وفى الليل كل الأصوات
تتضخم، صوت تكتكة الساعة والتى تسمع بالكاد
خلال النهار؛ فى سكون الليل تسمع كما لو أنها بندول
هائل وظلت تدخن ونظراتها معلقة على المنظر
الجانبى للستارة المرسومة عليها الفريسه. تنظر إليها
وهى تجرى، دون أن تقول شيئاً، ترى نفسها شديدة
الشحوب فى ضوء القمر الذى، صار بدرأ، بشكل

مرعب... شديدة الرعب والشحوب وجميلة مثلما هي الآن حيث تتأمل (نفسها؟) دون حركة، وفي سكون، واقفة قرب البيانو، استوت على المقعد بينما قلبها تتعالى ضرباته بشكل أصم واستعجال، ووضعت الصندوق على إحدى المناضد التي كانت بجوارها. بقيت لا تعرف ماذا تفعل ولا فيم تفكر، مشلولة، كما لو أنها ستقع فجأة في هوة. لا بد أنها مفاجأة، الانفعال بأنها ستعود وتراه في الوقت الذي لم يعد يحميها أى أمل، وأيضاً، كيف تفهمه، كيف توضح نفسها له؟ فهو لا يعرف هو نفسه إذا كان جسده، ذلك الجسد الذي تعرفه جيداً جداً، أو هو نفسه سيكون دخاناً أو شيئاً ما يتحلل بين يديها، فهي قد رأت الصندوق وهو ينزل إلى القبر، وحينئذ أيضاً تتساءل مرة وألف مرة إذا كان هو، جسده، الذي كان داخل هذا الصندوق المعدنى والذي لا يمكنها أن تفتحه لأن ذلك فوق طاقتها، ولأنه غير ممكن لأنه سيكون بداخله، متخشباً، ميتاً، شىء ما يلح عليها فى أن تراه، وأن ذلك سيكون الأفضل، وآخرون كان رأيهم أنها لا يمكن أن تتحمل رؤية وجهه مهشماً، بعد ذلك بدءوا يهيلون عليه التراب، جواريف الذين يدفنونه كانت تملأ المدفن فى تلك الليلة الباردة الممطرة من نوفمبر... لا. لا تستطيع أن تتحرك، كانت كما لو أنها قد مدت جذورها ولا تستطيع بنفسها قطع تلك الخطوات العديدة التى فصلها عنه وتجرى إليه، ملقية بذراعيها حول عنقه مثلما كان يجرى من قبل عندما تراه قد وصل، لا تجرؤ أن تلمسه وكان ذلك

أكثر ما ترغبه، وما تنتظره زمنًا طويلاً. لن تستطيع أبداً أن تتمالك نفسها أمامه، وقد اجتاحتها رغبة شديدة لا يمكن أن تقاوم بأن تلقى بنفسها بين ذراعيه، أرادت أن تعانقه، تقبله، تطوف بجسده وتعيد التعرف على كل... لكنه الدخان، الرماد، العظام فتطيب لا يمكنها أن تتخلى عن التفكير فى تلك الأشياء، تنتزعها من عقلها، لا، لا تستطيع، لكن ألا تراه هكذا، هكذا، بهذه الطريقة.

- لا، من أجل الرب! ألا أراك هكذا. صرخت مارينا: وبدأت تتحب بلا صوت وهى تغطى وجهها... عندما يراقبونها فهى تبكى دائماً وتقول أشياء كثيرة وهى تتدب قسوته. لقد بقى هو جاداً وهادئاً، مفكراً، ناظراً إليها بنظرته تلك المليئة بالحزن، كاقتراب أصم، طريقه ما يقول لها بها ألا تعذبه بحماقات، بتلك النظرة ذاتها مع أنها الآن... عواءات الكلاب تملأ الليل. مارينا كفت عن البكاء، ورفعت رأسها.

- لا تفزع، يا حبيبى، إنها فقط الكلاب التى تعوى فى الليل، والريح التى تهز الأبواب، لا شىء أكثر من ذلك فى هذا البيت. فقط أنت وأنا. تفصلنا بضع خطوات، وقد اجتاحتنا رغبة السنين، التى ما أشد ما طال غيابها. ودعنى أحكى لك عن تلك الليالى الأبدية التى ناديت عليك فيها كى تبقى بدون صوت وفقط بغمغمة خشنة وجافة تخرج من حنجرتى مبحوحة، والتى كنت فيها ثائرة؛ لأننى لن أراك بعد ذلك، وكنت أخبط نفسى فى الحائط والأشياء بعنف، حتى أسقط

خائفة القوى، وميتة من اليأس فى السرير، فى ذلك السرير الجامد الذى لم تحبه أبداً والذى يبعث صريراً عالياً. هل تذكر؟ انتظر، لا تتحرك، انتظر أكثر قليلاً، بالفعل أنا لا أعرف ما أقوله لك، فكرت فى أشياء كثيرة لا صلة بينها، أنا لا أعرف ما هو الموت، وأبداً لم أدركه، لكن أنت لست ميتاً. أنت كما كنت من قبل، وإذا كنت قد مت، فلم يمت حبيبى، ولأحبك ونحن وحدنا، وحدنا معاً بنفس الشوق للنوم معاً، لقد توقفت الساعة، هل تسمعها؟ الآن لا وجود للزمن، نستطيع أن نتبادل الحب دون الساعات التى تهددنا بمطرقة دقائق ساعاتها، دون أن يكون علينا أن نباعد جسدنا أبداً. آه! كم كان قاسياً عندما تنتزع نفسك منى وتتعجل ارتداء ملابسك، وتمشى قبل أن يطلع النهار ويمكن لأحد أن يراك خارجاً من بيتى. أى ألم وأنا أراك تغادر يومياً، عندما ينغلق الباب خلفك، وأجرى إلى النافذة حتى أراك تختفى بين ظلال الشارع. بعد ذلك أتمدد على السرير بعيون مفتوحة، وأعيد خلق اللحظات، انتظرتك كثيراً، ولزمن طويل، ولأن لا أعرف كم من السنين، وللإل طويلاً وأنا ملتصقة بزجاج النافذة، أراقب الظلال التى تعبر الشارع، وأجرى بعد ذلك خلف شخص يمكن أن يكون أنت، حتى ألحق به وأرى وجهه فاكتشف وجهاً آخر لا يقول لى شيئاً. وفى يوم ما فقدت الأمل فى أن ترجع، وأننى عشت كل السنين الطويلة، السنين الأبدية، فقط بتذكرى لك. دائماً أتذكرك، فى كل الساعات، فى كل لحظة، وفوق كل هذا فى الليل عندما تمطر وبحس

الواحدة كم هي وحيدة جداً، وبلا عزاء، أصفى إلى
المطر وهو يتساقط بلا نهاية. انتظر، يا حبي، انتظر
لحظة أكثر، على أن أقول لك إنني لست مثلما كنت
من قبل، أنت تعرف، الواحدة استغنت عن الأكل، وعن
النوم، وصرت نحيفة، لكن لن أقول لك شيئاً، ولن
أُسبب في حزنك، الآن أستطيع أن أهبك الحب
نفسه، المتعة نفسها، تعالى الآن، يا حبي، تعالى،
عانقني وضمني بقوة.

أشجار متحجرة

كان ذلك بالليل، وأنا مستلقية فى الفراش وحدى. وكل شىء كان يطبق بثقله علىّ كما لو كنت ميتة، والجدران الأربعة تتهاوى فوقى، مثل الصمت والوحدة اللذين يسجناننى. هى تمطر، والمطر أسمعته وهو يتساقط فى بطء. والأوتومبيلات تمر سريعة. والصفارة التى يطلقها الحارس الليلى السهران يتحشرج صفيها كما لو أنها صرخة محتضر. وآخر عربة لنقل الركاب مرت فى منتصف الليل. كان ذلك أيضاً فى مثل هذا الوقت من منتصف الليل. كنا مضطجعين، وتنفسنا كان قد بدأ يهدأ. وفى كل مرة يتم بخفة أكثر. كنا غريقين ألقى بهما على الشاطئ نفسه، ولا شىء يهم فى الأنا نكون نحن أنفسنا الآن. مندهشين من حقيقة أننا؛ وبدون أن نعرفه قد شعرنا به، كنا نتحسس باحثين عنه فى الجانب الآخر للعالم، ونهتدى إلى أنفسنا فى العزلة والحلم، وإننا هنا نتعرف على بعضنا عبر الجسد. ولبثنا بلا حركة،

ولوقت طويل فى سكون، الواحد بجانب الآخر. وتعود يدك لتداعبنى، وشفاهنا تتلاقى، وموجة حارة تغمرنا، ووقعنا مرة أخرى فى مياه عميقة، وضعنا معاً، أنت تتنهد وأنا أيضاً. لنجرب مرة أخرى. لكن الوقت كان قد فات. دقائق أو سنين. الآن لا شىء يتساوى. كل شىء قد تغير: تتفتح حدائق وبساتين، تتفتح مدينة تحت الشمس، ومعبد منسى يبرق.

فى الخارج؛ كانت الليلة تمضى بشكل مريح. ويصل إلى مع الريح طنين دقائق أجراس من بعيد. لم أحب أن أسمعها. فدقاتها تطن للغياب، وللموت. ولففت ذراعى حول خصرك متشبثة بجسدك كما لو كنت أتشبث بالحياة. لقد أزهر اليأس حبنا معاً، حتى إنه صار أكثر نأياً عن الكلمات وعن الدموع. قلت أنت "الوقت متأخر جداً"، "إذاً لا بد أن تذهب". أحسست بحافة الفراش كما لو كانت حافة العالم، والفضاء الذى أبحرنا فيه مثل كوكبين التقيا، تأملتك وأنت ترتدى ثيابك، بسرعة وبدون اهتمام، وأنا وضعت قدمًا واحدة فى حذائى بدون رغبة، وكان على أن أبذل جهداً كبيراً لأنهض وأمشى حتى الباب لأودعك.

لم نتكلم، إذ يمكنهم أن يسمعونا، وأن يكتشفوا أننا قد اختلسنا الحب سرّاً فى هذه الليلة، التى بدأت أتهاوى فيها وأنا ممزقة. والأجراس تواصل دقاتها التى يصل طنينها فى كل مرة أكثر وضوحاً محمولاً على رياح الفجر وطنين دقاتها تدوم بنا مثلما تدوم مياه زرقاء ممتلئة بأسمالك صغيرة. ووصلنا بأيدينا

المتعانقة حتى الباب، وتبادلنا القبلات هناك مثل أولئك الذين يقبلون بعضهم البعض على أرصفة الموانئ. انغلق الباب وراءك وصار مثل صفحة انطوت، وكان لابد للواحد منا أن يجعلها بطول الحياة كلها. لم أفلح في استيعاب أنك بالفعل قد رحلت، وأننى صرت، مرة أخرى، وحيدة. فتحت النافذة فلطم هواء الصباح البارد وجهى، كنت أرتجف من أخمص قدمى إلى قمة رأسى، وبدأت، فجأة، أمتلئ بالخوف، خائفة من أن الغد، اليوم، يتلاشى كل شىء، أو ينتهى مثل سحابة يبددها نور النهار. لقد عشنا ليلة ليست لنا، وسرقنا تفاحات، وأشاروا علينا بعلامة الصليب ووصمونا بالخطاة.

أحب أن أرى وجهى فى مرآة، لأعرف كيف أنا الآن؛ بعد هذه الليلة.

كان قد جاء. أدار المفتاح فى الكالون، وانفتح الباب. تظاهرت بالنوم حتى لا أتضايق.

لا أحب أن أقاطعه فى هذه الساعة، لأننى فى هذه الليلة، هذه التى لن يستطيع هو أن يتذكرها، ليال وأيام ونحن وحدنا، لأنها لا تخصه. دخل ليرى إذا ما كنت نائمة. تنهد بضيق، وأشعل سيجارة، ثم بحث بجانب التليفون إذا ما كانت هناك رسائل، خرج يتمشى بالغرفة، فتح الراديو، لم يكن هناك شىء يذاع، فالوقت متأخر، فقط موسيقى راقصة. تجول فى الغرف كلها، ثم اتجه للمطبخ. فتح الثلاجة، لم يكن بها شىء للعشاء. لم أكن قد تركت شيئاً، يوجد

فقط جزء ضئيل من لحم الفراخ. لو أحب، يمكنه أن يعمل ساندويتش. شيء ما وقع منه. هو يتحرك دائماً ببطء شديد. إنه يغنى الآن، لا بد أنه سعيد جداً. وهى ظلت تمطر فى الخارج، وأصوات عويل الأوتومبيلات على الإسفلت المبتل. وفى ذلك اليوم أيضاً كانت تمطر فى الفجر، وفى الصباح كان الجو منعشاً إلى حد ما... هل توافقنى؟ لقد جئت مبكراً جداً، حاملاً لى غصناً من القرنفل الأحمر، وبقيت محتفظة به بين يديّ.. ولا أعرف تماماً ما الذى كنت أقوله لك. لقد وقعت فى قلب دوامة من الدهشة والارتباك، فلم يحدث من قبل أبداً أن أهدانى أحد زهوراً، إنها أول مرة. أحببت أن أقول لك ذلك، لكننا أخذنا فى الكلام حول الأشياء التى لا تخصنا، بينما كنت أضع زهور القرنفل بشكل منسق فى زهرية. وأنت وقع نظرك على الكتب فى رفوف المكتبة، وأخذت تتصفحها باهتمام زائد. أعرف أننا كنا غارقين فى هذه اللحظة، أو بكلمات مباشرة كنا منفصلين بشكل جعلنا مذهولين وأفقدنا الرؤية مثل نور شديد السطوع. ظللنا طافيين فوق هذه اللحظة بينما زعق كلاكس على الناصية كما لو أنه يزعق فى الماضى الأكثر بعداً، ذلك الماضى الذى كان قبل أن تتلاشى أنت الآن فأفقد الإحساس بكل شيء، والوحيدة التى احتفظت بقوتها هذه اللحظات بالغة العمق والفوضى، حية بداخلنا نحن أنفسنا.

جلسنا متجاورين بجوار النافذة، نتطلع إلى الخارج كما لو كنا داخل قفص أو داخل مدرعة. تمنيت

أن أعيش هذه اللحظة نفسها فى الغد، فى يوم طلق
لنا، وفكرت بمدينة حيث يمكننا أن نتمشى فى
شوارعها دون أن يتعرف علينا أحد فيها ولا أن
يحيينا، حيث نستلقى وحدنا على شاطئ أو نهيم
متجولين فى الريف بأيدينا المتعانة. أحب أن أعرف
معك العالم. وأحب أن أدخل فى النوم وأستيقظ وأنا
دائمًا بجوارك، أطيل النظر إليك. أتوق بشدة إلى أن
أعرفك. وحتى عندما أكون وحدى أتذكرك، وعلى أن
أحل اللفز الذى لا تصرح لى به الآن؛ جزء من حياتى،
هذه اللحظات التى أمضيها معك. أنا لا أعرف كيف
أتكلم عن الأشياء التى تدور بداخلى. ربما، فى يوم ما،
أكتبها لك وأنا جالسة بجوار نافذة أخرى. كما أننى لا
أعرف حتى إلى أى مدى أنا سعيدة. فكل وداع هو
بمثابة نزيه من الألم الذى يغتالنا ببطء. إننا مضمون
بالكلمات، والأحاسيس، والصمت الذى نجبر عليه
نحن أنفسنا. ربما هذه الغرفة التى تضمنا واسعة
أكثر من اللازم، أو ضيقة أكثر من اللازم، لذلك،
فنحن لا نعرف ماذا نفعل بأجسادنا، ولا بالكلمات.
تنظر إلى الساعة، والوقت سيف معلق فوق رؤوسنا.
بعد ذلك سيأتى المساء، خاويًا مثلما تكون تلك
الأمسيات التى لا تكون معى فيها. عندما نكون
مفترقين، وكل منا فاقد لنصفه الآخر. أشعر بتحديد
نظراتك وأنت تنظر إلى وتتنهد. لا بد أنك مرهق.
تتأهب، ربما يكون الوقت متأخرًا جدًا. تتأهب مرة
أخرى، وتبدأ فى خلع ملابسك، والبدلة راحت تسقط

فوق المقعد. والسرير يهبط بك وأنت تجلس عليه لتخلع حذاءك. تدخل تحت الأغطية وتلتصق بجسدى، وتبدأ يدك فى مداعبتى. أحبيت لو كان بإمكانى أن أقول لك ألا تلمسنى، وأن هذا لا جدوى منه، لأننى لست هنا وألا تبحث شفتاك عن شفتى. أنا الآن خارج كيانى. أنا بعيدة أقود الأوتومبيل فى الطريق الواسع، طريق أشجار الصفصاف، أسمع ضجة الصرخات فوق الرصيف. أنظر بطرف عينى إلى الكيفية التى يزحف بها عقرباً ساعة السرعة على مينائها المرقم: ٧٠، ٨٠ والبيوت والأشجار تتدافع للخلف كلما تزايدت السرعة: ٩٠، ١٠٠ طفلة جالسة فوق دكة تبكى، لا بد لى من الوصول بسرعة، والطريق يمتد إلى الأبد. حيانى رجل وهو يبتسم، لم أحب أن أنتظره، اجتزت الإشارة الحمراء، فالشئ الوحيد والمهم هو أن أصل، فأنت تنتظرنى عبر الأيام وعبر السنين، على الرغم من الموعد الذى تحدد، والذى لم يتحدد، لكن من الضرورى جداً أن نلتقى. ليست هناك طريقة أخرى لأقول لك ذلك. أجرى إليك ونرتمى فى أحضان بعضنا، ونتعانق عناقاً طويلاً، نسير وأصابع أيدينا متعانقة، نسير حتى نهاية العالم. أطبق الليل كنذير، زمن طويل قد ضاع، الشوارع خالية، ونحن الوحيدون الباقون على قيد الحياة فى الصيف. هذه حديقة معمرة فى انتظارنا، والزمن تركها مهملة. كنا مكتملين تماماً حتى أننا لا نرغب فى عمل شئ، فقط، نجلس على مقعد الحديقة الطويل هذا. ونلبث مثل اثنين يسيران فى نومهما فى الحلم نفسه.

كانت الطيور تحوم بين أغصان الأشجار، وأوراق
تتساقط، كنا متحدين بأيدينا وأعيننا وقد نجحنا
اليوم فى الانعتاق من روتين الأيام المتشابهة. كنا هنا.
كما نكون دائماً. هنا نحن، مطمئنين بلا وداع، ولا
مسافات تحول بيننا وبين استعادة حياتنا المتواصلة.
دقت الساعة العاشرة فى هذه الليلة الأبدية. لقد
انقضت ألف سنة، وانقضت مرة أخرى أو مرتين،
الطيور تحوم بين أغصان الأشجار، وتتساقط الأوراق.
ننظر إلى واجهة كنيسة قديمة، بين الضباب الحار فى
طلعة النهار. ننظر إلى الأعمدة والطاقات، كما لو كان
ذلك من خلال التذكر. لا تتكلم الآن. احتفظ بى بين
يديك، وحافظ على قطعة العملة، وجهك ووجهى
لليالى الممطرة، والتي تشتد فيها وطأة الملل بشكل
فظيع. والإحساس كله ينمحي منا. سهرة من أجل
سحب خاوية تمر على وجه القمر كما لو كانت جرحاً
مضيقاً فى السماء السوداء. تحوم الطيور بين
الأغصان، تتساقط الأوراق. تنحبس الكلمات فى
الحنجرة. إنها استعمالات زائدة لقولها. نحيا ليلة
دائمة لنا. أتثبت بيديك وبعينيك. إنه شديد الوضوح
الصمت، الذى يصفى إليه دمنا. الإنارة فى الشوارع
شحبت. ولا روح حية واحدة تعبر من أية ناحية.
والأشجار التى تحيط بنا كانت متحجرة. ربما نحن
أموات، ربما نحن أكثر نأياً عن جسدنا.

الفهرس

غناء مربع.....	٥
الدائرة.....	١٩
ليلة الجيتارات المحطمة.....	٢٧
حفلة الحديقة.....	٣٧
جريسيلدا.....	٥٥
الصيف الأخير.....	٦٧
أوسكار.....	٧٧
الرسالة.....	٩٥
٣ شارع استوكهولم.....	١٠٣
عنبر النقاهاة.....	١١٣
العناق.....	١٣١
أشجار متحجرة.....	١٤٣

صدر من هذه السلسلة

- ١ - «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه»
.. رواية .. جائزة ميديسيس.
- ٢ - «فتاة من شارتتر».. للكاتب الفرنسى «بيير
بيجى».. رواية .. جائزة إنتر.
- ٣ - «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى
شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.
- ٤ - «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد
عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية .. جائزة سلطان
العويس.
- ٥ - «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله»..
مسرح .. جائزة أبها.
- ٦ - «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس
منصور» .. سيرة ذاتية .. جائزة مبارك.
- ٧ - «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ..
رواية .. جائزة التفوق.
- ٨ - «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ..
مسرح .. جائزة التفوق.
- ٩ - العاشقات .. للكاتبة النمساوية «إفريدة يلينك» ..
رواية .. جائزة نوبل.

١٠ - نوة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان»..
رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١ - «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالي
«إيتالوكالقينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة
فياريچيو.

١٢ - القلعة البيضاء.. للكاتب التركي «أورهان باموق»
.. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصري
«إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة
التفوق.

١٤ - قرية ظالمة.. للكاتب المصري «محمد كامل
حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة
للأدب.

١٥ - الرجل البطيء.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج . م .
كوتسى» رواية .. جائزة نوبل.

١٦ - طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «ماري
واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ - شوشا.. للكاتب البولندي «اسحق باشيفتس
سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س.
نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ - الحياة الجديدة.. للكاتب التركي «أورهان باموق»
.. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ - عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزي
«هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

- ٢١ - الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.
- ٢٢ - المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية - جائزة نوبل.
- ٢٣ - الأنثى كنوع .. للكاتبة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.
- ٢٤ - ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.
- ٢٥ - اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.
- ٢٦ - الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٢٧ - نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيtte كروناور» مختارات.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.
- ٢٨ - الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.
- ٢٩ - إيزابيث كُستلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٠ - السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيtte كروناور» .. قصص.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.
- ٣١ - حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو داييلا».. قصص.. جائزة بيرياروبيا.

- ٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس»
رواية.. جائزة البوليتزر.
- ٣٣ - اغتتم الفرصة.. للكاتب الكندي «سول بيللو»..
رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالي «جوسيه
ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية..
«مونیکا علي».. رواية.. جائزة البوكر.
- ٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلي «خوسيه ميغيل
باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.
- ٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادي سميث»
رواية.. جائزة الأورانج.
- ٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج. م. كوتسي»..
رواية.. جائزة نوبل.
- ٣٩ - قبيلات سينمائية.. للكاتب الفرنسي «إيريك
فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.
- ٤٠ - هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسباني «خوان
خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.
- ٤١ - الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول
أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.
- ٤٢ - العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس
ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٤٣ - العالم.. للكاتب الإسباني «خوان خوسيه
مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ - ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساي».. رواية.. جائزة البوكر.

٤٥ - الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ - بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ - ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ - ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى في سا.

٤٩ - الكهف.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ - يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقي «ج.م. كوتسي».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ - كازانوفافا.. للكاتب الإنجليزي «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ - إنقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ - العم الصغير.. للكاتب الألماني «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب في المنفى.

٥٤ - اللعب مع النمر.. للكاتبة الانجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ - في أرض على الحدود.. للكاتب الألماني «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ - الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ - المسرحيات الكبرى جـ ١.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ - المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزي «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ - نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيما ماندا نجوزي أديتشي».. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ - مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ - مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ - الحوت.. للكاتب الفرنسي «جان ماري جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٣ - رقة الذئب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بيني».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ - رحلة العم ما.. للكاتب الجابوني «چان ديقاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٦٥ - مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالي «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ - كرسي النسر.. للكاتب المكسيكي «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

- ٦٧ - داي.. للكاتبة الأسكتلندية «أ. ل. كيندي».
رواية.. جائزة كوستا.
- ٦٨ - الحب المدمر.. للكاتب الأمريكي الكندي «دي
واي بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.
- ٦٩ - أين نذهب يا بابا؟.. للكاتب الفرنسي «جون لوى
فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.
- ٧٠ - نداء دينيتي.. للكاتب الجابوني «جان ديفاسا
نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا
السوداء.
- ٧١ - صخب الميراث.. للكاتب الجابوني «جان ديفاسا
نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا
السوداء.
- ٧٢ - المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسي «مارك
بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية
الكبرى للرواية.
- ٧٣ - كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالي «جوزيه
ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٧٤ - كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكي «فيليب روث»..
رواية.. جائزة فوكنر.
- ٧٥ - نُريد أن نتحدث عن كيشين.. للكاتبة الأمريكية
«ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.
- ٧٦ - ألم فذ.. للكاتب الإنجليزي «أندرو ميللر»..
رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.
- ٧٧ - أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «مورييل
باربري».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

- ٧٨ - حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيال براك»
رواية.. جائزة روندو.
- ٧٩ - غداً.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباختر».. رواية..
جائزة جورج بوشنر الكبرى.
- ٨٠ - الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم
فولدرز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.
- ٨١ - أن نُصبح أًغراباً.. للكاتبة الإنجليزية «لويز
دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.
- ٨٢ - المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا
بيلي».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.
- ٨٣ - بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هرْمَن
هيسّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.
- ٨٤ - بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف.
س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.
- ٨٥ - مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس
أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.
- ٨٦ - لافينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى
ليجوين».. رواية «جائزة ديمون نايت التذكارية
الكبرى».

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١- سنوات الهروب.. بلينيو أبوليو ميندوثا.. جائزة
بلازا إي خانيس ١٩٧٩.

٢ - الباحث عن الذهب.. ج. م جوستاف لوكليزيو...
جائزة نوبل ٢٠٠٨.

٣ - جائزة أو. هنري.. مجموعة مؤلفين.. جائزة أو.
هنري للقصة القصيرة ٢٠٠٧.

الكتاب

هذا الكتاب هو مجموعة قصصية من مجموعات "أمبارو دابيلا" القليلة والباذخة الجمال والفرادة في الوقت ذاته. تواصل فيها مابدأته في مجموعتها القصصية الأولى "حين تقطعت الأوصال" الصادرة عن سلسلة الجوائز نفسها بترجمة أسرة للكاتب: "محمد إبراهيم مبروك" أيضاً. تنتقل "أمبارو دابيلا" هنا عبر تنوع بالغ الثراء لشخص تعالج ما يمور بداخلهم بمشروط كاتبة شديدة الرهافة والشاعرية. وهي تتجول بسلاسة ونعومة بين وحدتهم وتفاصيل حياتهم اليومية الشائكة ومازقهم الوجودية وأحلامهم وهزائمهم. وتفتش في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم متحركة في أدق تفاصيل السرد وواضعة أمام عينيها رغبة عارمة ومدهشة لاكتشاف ماهية الذات الإنسانية وصراعها الداخلي والخارجي مع الكون الشاسع من حولها.

الكاتبة: أمبارو دابيلا. كاتبة مكسيكية
الجائزة: جائزة بياروتيا عام ١٩٧٧.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN # 9789774216864



6 221149 019911

١٠ جنيهات

Bibliotheca Alexandrina



1031813

الهيئة المصرية العامة للكتاب